

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
République Algérienne Démocratique et Populaire
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
Ministère de l'Enseignement Supérieur et de la Recherche Scientifique



المركز الجامعي - ميلة -

المرجع:

المعهد: الآداب واللغات
القسم: لغة وأدب عربي

اللون و دلالاته في شعر الأعرابية الجاهليين

مذكرة معدة استكمال المتطلبات نيل شهادة الماستر

إشراف الأستاذ: هشام باروق

إعداد الطالبة: سامية عزيزي

التخصص: أدب قديم

الشعبة: أدب عربي

السنة الجامعية: 2012/2013



مقدمة

مقدمة:

إنّ ثراء وتنوع الشعر العربي القديم جعله محط اهتمام الباحثين الذين أولوه عناية كبيرة، فحاضوا تجربة الغوص في أعماقه متأملين متمحصين في محاولة للكشف عن أسراره وجماله، ولعلّ من أهم المواضيع التي حفل بها الشعر الجاهلي موضوع اللون؛ الذي كثيرا ما نجده يتردّد في شعر القدماء، فلا نكاد نعثر على قصيدة تخلو منه، وهذا ربما يرجع في أصله لارتباط الألوان منذ القدم بحياة الإنسان، فللون قيمة في حياة الأفراد لا يمكن إغفالها والتغاضي عنها، لما تمنحها من لذة جمالية من خلال تنوعها وغناها، فالإنسان لا يمكنه أن يعيش في عالم دون ألوان، لأنّ اختفاءها يعني انعدام الحياة فيصير العالم سوداويلاي رى فيه سوى الظلام.

إنّ تصوّر هذا العالم بلا ألوان يدفع الإنسان للشعور بالملل والاكتئاب ويثير فيه القلق والاضطراب اتجاه الوجود، ومن هنا تكمن أهمية اللون في كونه نعمة كبرى أنعمها الله على عباده تجلّت في خلقه لهذا الكون بمختلف ألوانه المشكّلة له، فجعلها محيطا للإنسان أينما تلتفت يدركها ويتمتع بجمالها، فنثير في نفسه البهجة والانشراح وتغمره بمشاعر وأحاسيس تبعث على السعادة.

فقابلية الإنسان للتأثر بالألوان ليست على درجة واحدة بل تتغير وتختلف باختلاف الأشخاص فنرى الناس يميلون إلى تفضيل ألوان دون أخرى وهذا بحسب المواقف التي عايشوها، وتبعاً لحالاتهم الشعورية التي يتخبطون فيها، واختلاف هذه التأثيرات يعود في أصله إلى اختلاف طبيعة البيئة بكل ما تتضمنه من عادات وتقاليد وأفكار بإمكانها أن تتحكم في توجيه النزعات والميول اتجاه الألوان فتساهم في تبدل الأحاسيس والمشاعر.

يُعدّ اللون عنصراً رئيسياً في التشكيل الشعري، لما يحمله من عناصر جمالية خصوصا عند الأغربة الذين وظّفوه في أشعارهم بمختلف جزئياته وتفاصيله الموجودة في الطبيعة، أو بتأثير تجاربهم الذاتية وما تولّد عنها من دلالات نفسية عكست رؤية الشاعر الغراب للألوان في ظلّ مجتمع بنى قيمه على أساس لوني، فقدّس الأبيض وتشاعم من الأسود، وهذه النظرة للون شكّلت منعرجا في حياة الغراب، فرسم عن طريقها ملامحه النفسية وجسّد ما يختلج فيها من مشاعر الحزن والفرح، معتمدا في ذلك على التصريح والتلميح.



وعليه قررت أن أتناول بالبحث والدراسة هذا الموضوع، مع الأخذ في الحسبان البحث عن القيمة الجوهرية لتجليات اللون في شعر الأعرية الجاهليين انطلاقاً من طرح مجموعة من التساؤلات أهمها:

هل كان للون تأثير في حياة الشعراء الأعرية؟ أو بمعنى آخر، أكان للون دور في توجيه خطابهم الشعري؟ ون صحّ هذا فكيف تعامل الأعرية مع بقية الألوان الأخرى؟ وخصوصاً اللون الأبيض الذي مثّل الصراع الدائم في حياة الغراب؟

ولإجابة عن كل هذه التساؤلات آثرت أن يكون موضوع بحثي موسوماً بـ: "اللون ودلالته في شعر الأعرية الجاهليين".

أما فيما يخص الدراسات السابقة التي تطرقت لظاهرة اللون عند الأعرية الجاهليين فهي قليلة، أهمها دراسة "خالد زغريت" الموسومة بـ"جماليات اللون في شعر الأعرية الجاهليين" وهو عبارة عن بحث منشور في مجلة "حوليات التراث" مستغانم، العدد الثالث، (2005)، فضلاً عن الدراسة التي قدمتها "لارا عبد الرؤوف شفاقوج" بعنوان "أثر اللون في نفس عنتره من خلال شعره، دراسة أدبية نفسية"، وكذا رسالة "أمل أبو عون" بعنوان "اللون وأبعاده في الشعر الجاهلي شعراء المعلقات أنموذجاً". وهي دراسات لم تتعمق في اكتشافه جماليات توظيف اللون في شعر الأعرية خاصة، وأثر اللون في توجيه خطابهم الشعري توجيهاً معيّنًا.

تكمن أهمية هذه الدراسة في كونها تسلط الضوء على طائفة من الشعراء لهم وضع خاص في مجتمعاتهم، والهدف منها هو استقراء حضور اللون في أشعارهم ومحاولة الكشف عن الجانب الخفي الذي يلفه الغموض ويعتريه الاضطراب والتوتر، وهذا يتتبع دلالات الألوان والتركيز على الملامح النفسية وإبراز جماليات اللون بتعدد إحياءاته وصوره.

أما عن أسباب اختيارنا لهذا الموضوع فهو الميل للشعر بصفة عامة والقديم منه على وجه التحديد؛ إذ آثرنا أن نخوض في دراسة شعر الأعرية الجاهليين بالدراسة والتحليل نتيجة لوضعهم الخاص داخل مجتمعهم على غرار بقية الشعراء الجاهليين، ولأن موضوع اللون ارتبط بمعاناة الذات الإنسانية منذ العصر الجاهلي إلى يومنا هذا، فقضية التمييز اللوني والعرقى لا تزال سائدة حتى في عصرنا، وإن اختلفت أسبابها وطرائق ظهورها قديماً وحديثاً.

كما لا ننكر في هذا المقام اعتمادنا على جملة من المصادر والمراجع، انحصرت المصادر في الدواوين الشعرية التي استنبطنا منها مختلف الظواهر اللونية، ونذكر من المراجع: كتاب "اللغة واللون" لـ"أحمد مختار عمر"، بالإضافة إلى كتاب "جماليات التشكيل اللوني في القرآن الكريم" لـ"ابتسام مرهون الصفار"، وبعض الدراسات المدونة.

ولقد استعنت على مقارنة هذه الأهداف بالمنهج الذي رأيته ملائماً، وهو منهج يقوم على ركائز الوصف والتحليل النفسي خاصة، لأن هذه الركائز هي الأنسب في رأينا من أجل استقراء دلالات الألوان في شعر الأغربة وفق معطيات نفسية من جهة، وتحليل هذه الدلالات وتقديمها وفق ظهورها من جهة أخرى.

وعليه جاء البحث مكوناً من مقدمة وثلاثة فصول خُصّصت لدراسة الإشكاليات المطروحة وفق الخطة والتنظيم التاليين:

خصّصنا الفصل الأول الموسوم بـ: "اللون في الموروث الإنساني"، للبحث في معنى اللون لغة واصطلاحاً، ثم تطرقنا إلى الألوان في الموروثين القديم والجاهلي، كاشفين عن مختلف التقاطعات بينهما.

أمّا الفصل الثاني الموسوم بـ: "الشعراء الأغربة واللون" فقد كان مدخلاً للبحث في حياة الغراب وكيفية تأثير اللون فيها، وتحكّمه في توجيه وإعطاء اللون دلالات محدّدة حسب الحالة الاجتماعية أو النفسية أو الجمالية، بالإضافة إلى إبراز أثر اللون في الصورة الشعرية وتحولها إلى لوحة فنية عامرة بالألوان.

أمّا الفصل الثالث الموسوم بـ: "الأبعاد الجمالية للون في شعر الأغربة" فقد تناولنا فيه ثلاثة أبعاد للون منها: البعد الاجتماعي، البعد النفسي، البعد الأسطوري، ثم خاتمة البحث وهي بمثابة النتائج المتوصل إليها.

لم يخل هذا البحث كغيره من الأبحاث من صعوبات تتمثل في؛ ندرة الكتب المتخصصة في هذا المجال، وصعوبة الحصول عليها؛ إذ نجد إشارات طفيفة في بعض الكتب إلى هذا الموضوع بالذات.

ويجدر بي في هذا المقام أن أذكر صدوراً احتوتني وجسدت بذلك معاني السماحة والكرم والعطاء أكبر تجسيداً، أذكرها بكل فخر واعتزاز، الأستاذ المشرف "هشام باروق" جزاه

الله عني خيرا على صبره وتجرّبه عناء هذا البحث، ولكل الأساتذة وعمال المكتبة الذين
قدّموا يد العون وساهموا في إتمامه على هذا الوجه.

وفي النهاية نأمل أن نكون وفقنا في هذا البحث، فإن كنا قد وفقنا في شيء منه فإن
الفضل لله عز وجل نحمده ونشكره على نعم العلم والمعرفة، وإن كانت الأخرى فحسبنا أننا
حاولنا، وسنلقي باللوم على البدايات التي دائما ما تكون صعبة.
والله من وراء القصد

الفصل الأول

-اللون • بحث في المفهوم:**أ - لغة:**

اللون لغة مأخوذ من الجذر الثلاثي "لون".

جاء في لسان العرب "لابن منظور" اللون بمعنى الحدّ الفاصل بين الأشياء والهيئة، وكذا التغرّ وعدم الثبات على حال واحدة فيقول:

اللون: > هيئة كالسواد والحمرة، ولونته فنّون، ولون كل شيء ما فصل بينه وبين غيره، والجمع ألوان، والألوان: الضروب، واللون النوع، وفلان متلون أي لا يلبث على خلق واحد، واللون: النّقل وهو ضرب من النخل، كلّ شيء من النخل سوى العجوة من اللين، واحدته لينة، وشبه ألوان الظلام بعد المغرب يكون أولاً أصفر ثم أحمر ثم يسود، ولون البُسر تلويها إذا بدا فيه أثر النضج¹.

ورد اللون بمعنى الأثر فقليل:

> لون: جمع ألوان: صفة الشيء وهيئته من البياض والسواد والحمرة. وهي حصيلة الأثر الذي يحدثه في العين النور الذي تبثه الأجسام².
أما "الزبيدي" فعرفه قائلاً: > اللون تكيف ظاهر الأشياء في العين، أو هو ما قيل الكيفية المدركة من حمرة وصفرة وغيرها³.

ب - اصطلاحاً :

نال اللون حظاً من اهتمام الفلاسفة والعلماء، والذين أعطوه تعريفات متعددة كل حسب مجال تخصصه، فالعلماء اعتبروا الضوء سبباً في حدوث الألوان وتجليها في الطبيعة ومن ثمّ تعدّها وتنوعها، وبعضهم جعلها سمةً موجودة في الأشياء، وهناك من حصر الألوان جميعها في اللونين الأبيض والأسود.

ذهب بعض العلماء إلى أن المقصود بكلمة "لون": > هو ذلك التأثير الفسيولوجي الخاص بوظائف أعضاء الجسم الناتج عن شبكية العين سواء أكان ناتجاً عن المادة

¹ ابن منظور: لسان العرب، مادة (لون)، ضبط نصه وعلق حواشيه: خالد رشيد القاضي، ط1، دار صبح إد سوفت- بيروت، لبنان، 2006، ج12، ص355.

² دار المشرق: المنجد في اللغة العربية المعاصرة، مادة (لون)، ط1، بيروت - لبنان، 2001، ص1309.

³ الزبيدي: تاج العروس، مادة (لون)، تحقيق: عبد الكريم الغريوي، ط1، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي - الكويت، 2001، ج36، ص131.

الصباغية الملونة أو عن الضوء الملون، فهو إذن إحساس وليس له وجود خارج الجهاز العصبي للكائنات¹.

أما فيما يخص "أرسطو" فرأى أن <اللون خاصية متأصلة في الأشياء>²، وعرف "بلينيوس" هو الآخر اللون فقال: <اللون هو جنس من الأجناس، لأنه مقسم إلى البياض والسواد والحمرة والصفرة والأسمانجوني وهو لون السماء>³.

2- اللون في الموروث القديم:

*اللون الأبيض:

اتفقت معظم الحضارات القديمة على دلالة اللون الأبيض، فهو رمز <للطهارة والنور والغبطة والفرح والنصر والسلام ورمز للصفاء ونقاء السريرة والهدوء والأمل>⁴، في مقابل اللون الأسود رمز الموت والخراب والتشاؤم.

ولعل ارتباطه بالخير والأمل والتفاؤل هو ما جعل لهذا اللون دلالة إيجابية استمرت على مر العصور، فهو لون مرتبط بالنور والإشراق، مما أكسبه صفة القداسة فكان له علاقة وطيدة بمختلف الديانات نجد منها المسيحية؛ التي كان يرمز فيها للمسيح <بثوب أبيض دليلاً على الصفاء والنقاء والخلو من الدنس>⁵.

في المقابل من هذا نجد أن اللون الأبيض له دلالات سالبة في كونه يختص بالشيب الذي يصيب الإنسان، ليكون ندير شؤم ومصدر اضطراب وقلق، فهو يوحي بقرب الأجل، وابتعاد الإنسان عن الحياة، فالشيب حليف العجز والشقاء واليأس، لأنه يقلل من فرص التثبث بالحياة؛ وبروزه في الشعر دليل على الاقتراب من النهاية، وفي هذا الصدد نذكر قصة الإله (رع) > فعندما شاب وتقدمت به السن كاد له الناس، وتلملوا من حكمه، وحاولوا الخروج عليه وعصيانه، مما جعله يشتكهم إلى مجلس الآلهة، ويستعين به على حكم الناس⁶، فهذه القصة تؤكد أن اللون الأبيض هو مصدر الضعف والعجز.

¹ ابتسام مرهون الصفار: جماليات التشكيل اللوني في القرآن الكريم، ط1، عالم الكتب الحديث - إربد، الأردن، 2010، ص64.

² فضل بن عمار العمري: الدم المقدس عند العرب، ط1، مكتبة التوبة - الرياض، 2004، ص21.

³ ابتسام مرهون الصفار: جماليات التشكيل اللوني في القرآن الكريم، ص21.

⁴ فائق عبد الجبار جواد: اللون لعبة سيميائية، ط1، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع عمان، الأردن، 2010، ص9.

⁵ أحمد مختار عمر: اللغة واللون، ط1، عالم الكتب للنشر والتوزيع - القاهرة، 1997، ص164.

⁶ أمل عبد القادر أبو عون: اللون وأبعاده في الشعر المعلقات أنموذجاً، رسالة دكتوراه غير مطبوعة، إشراف: إحسان الديك، جامعة النجاح - نابلس، فلسطين، 2003، ص15.

أما دلالاته على الطهارة والصفاء والنقاء، فهو راجع إلى طبيعة اللون الأبيض الذي يكشف أدنى أثر للتلوّث نجده في ثياب وغيرها، لعلّ هذا ما جعل من كفن العربي قديماً يكون أبيضاً، وقد استغلّ اللون الأبيض للتعبير عن دلالات مجازية كقولنا: فلان قلبه أبيض، والطفل كالصفحة البيضاء، وكلّ هذا كناية عن طهارة القلب وصفاء السريرة.

لقد كان اللباس الرسمي > عند الرومان قديماً عبارة عن عباءة مصبوغة بالأبيض تعبيراً عن نقاء حياتهم الطلابية¹، فهو رمز الطهارة والخلو من الدنس والآثام، كما استخدم في القرن 19م في بريطانيا > للإشارة إلى طهارة أو نقاء المتوفى؛ وبخاصة حين يكون في سنّ الطفولة²، ولم يلبث هذا اللون على معنى واحد؛ بل نجده عند >اليونان دليل الفرح والسرور³، ولكنّه لدى بعض الشعوب يدلّ على الموت والحداد والحزن كما هو الحال في الأندلس.

وتجدر بنا الإشارة أنّ هذه الدلالات المتناقضة التي تشبّع بها هذا اللون تختلف باختلاف الشعوب وعاداتها وطرائق تفكيرها ونظرتها للون، فاللون الأبيض هو لون الحداد عند المغاربة، فمن يرتدي الأسود فهو يبدي حزنه، وأما الذي يرتدي الأبيض فهو يرتديه ظلماً منه أنّ الميت سيلقى ربه بأعمال طيبة، فهو من باب التفاؤل.

ومن الأمثلة التي نوردها والتي يبرز من خلالها اللون الأبيض بأنه لون البشري أنّ الكنيسة الكاثوليكية، كلّما أرادت انتخاب البابا، حين يجتمع رؤساء الكنائس فإن اتفقوا على تنصيبه قاموا بإرسال دخان أبيض إلى من بالخارج، أما إذا حدث العكس ولم يتم تعيينه فإنهم يطلقون دخاناً أسوداً⁴.

وكان للبيئة أثر واضح في توجيه النظرة للون، فهناك > اعتقاد عند الإغريق أنّ الجلابب الأبيض إذا لبسه المحزون هنيئاً بأحلام سعيدة⁵، ومنه كانت >العروس ترتدي ملابس بيضاء، يوم العرس إنباء عن العفة والطهارة والشرف⁶، وقد أعطى بعض الباحثين تفسيراً للباس العروس الأبيض، فرأوا أنّ البياض يرتبط بوصف > الآلهة (هيرا)، وهي الإلهة الأم

¹ أمل عبد القادر أبو عون: اللون وأبعاده في الشعر، ص 12.

² أحمد مختار عمر: اللغة واللون، ص 166.

³ ابتسام مرهون الصفار: جماليات التشكيل اللوني في القرآن الكريم، ص 236.

⁴ ينظر: ابتسام مرهون الصفار: جماليات التشكيل اللوني في القرآن الكريم، ص 625.

⁵ أحمد مختار عمر: اللغة و اللون، ص 150.

⁶ عبد الفتاح الحموز: سيميائية التواصل والتفاهم في التراث القديم، ط 1، دار جرير للنشر والتوزيع - عمان، الأردن، 2011، ص 171.

في جبل (الأوليمب)، فهي تجلس على جلد بقرة بيضاء تتخذ من هذه البقرة شعارا لها لأنها من أكثر الحيوانات أمومة، فقد يكون استخدام اللون الأبيض للعروس استحضر الخصوبة هذه الإلهة¹.

أما في العصور القديمة فقد نال هذا اللون قداسة، باعتباره رمز اللإله؛ فهو اللون المفضل لدى رجال الدين في المعابد؛ وخاصة في الهند حيث > يمثل الأبيض البراهمة ورجال الدين وفقا للأساطير القديمة <²، كما كُرس اللون الأبيض > لإله الرومان (Jupiter) وكان يُضحى له بحيوانات بيضاء³، فلا يقبل الكاهن الأضحية إذا كان بها شعرة سوداء.

وتتجلى قداسة هذا اللون أيضا في بعض العبادات؛ فاللون الأبيض في أصله مرتبط بعبادة الشمس والزهرة، وتسمية الزهرة تعود للأزهر الذي يعني > كل لون أبيض <⁴، فالأبيض هو اللون المشرق والمضيء في الإنسان، ولعل هذا ما يجعله يحتل مكانة خاصة في كونه يمثل قوة سحرية عجيبة، خاصة لدى بعض الشعوب، إنه > يحمي من عين الحسود <⁵، وهذه الأفكار لا يزال لها وجود خاصة في بعض المناطق، حيث يعتقدون أن وضع الحجر في المنزل سيحميهم من العين الخبيثة والحاسدة.

وقد كان للون الأبيض صلة وثيقة ببعض الطقوس الممارسة لدى بعض الشعوب، ففي > ساحل العاج ومناطق أخرى من إفريقيا الغربية، إذا خرج الرجال للقتال قامت النساء بدهن أجسادهن باللون الأبيض وزين أنفسهن بالريش وقرن الثور وأشياء أخرى، وبدأن بحركات طقوسية سحرية <⁶، لوأد الخوف وزرع نوع من الطهارة الروحية.

أما في المكسيك فنجد عيد القمر الذي تحتفل به النساء > فيطلقن أنفسهن بالجص والدهن النباتي ليصبحن ببيضاوات كأنهن ن أشباح، وبعدها يبدأن بالدعاء ليُبعد القمر أرواح الموتى عن القبيلة، ويهَّ به ن الخصب والأولاد، وهذا الطقس يشير إلى قصة (هيرا)⁷.

¹ أمل أبو عون: اللون وأبعاده في الشعر، ص12.

² أحمد مختار عمر: اللغة واللون، ص164.

³ المرجع نفسه، ص90.

⁴ ابن منظور: لسان العرب، مادة (زهر)، ج7، ص90.

⁵ أحمد مختار عمر: اللغة و اللون، ص163.

⁶ فراس السواح: لغز عشتار الإلهة المؤنثة وأصل الدين والأسطورة، ط1، دار علاء الدين - دمشق، 1985، ص206.

⁷ أمل أبو عون: اللون وأبعاده في الشعر، ص15.

وفي استخدم اللون الأبيض عند العرب، فقد نُكر أنهم استخدموه في <كسوة الكعبة بمنسوجات بيضاء رقيقة>، كما أن لون راية الرسول يوم فتح مكة كانت بيضاء¹، وهو ما يشير إلى الطريقة السلمية التي فتح بها الرسول صلى الله عليه وسلم مكة.

كما أن اللون الذي يتقرب به المسلم إلى ربه في عبادته هو الأبيض الذي يرتديه الحجاج لأداء فريضة الحج؛ وهو لون وصف به أهل النعيم الذين فازوا برضوان الله فكان مثوهم الجنة، إضافة إلى هذا فراية الاستسلام لونها أبيض للدلالة على فضّ النزاعات وتناسي الأحقاد والشورور والدعوة للصلح والمهادنة.

*اللون الأسود:

حمل اللون الأسود في طياته معاني عديدة، منها السلبية وتتمثل في الموت والدمار والخراب والعدمية والفناء، بالإضافة إلى معاني إيجابية؛ فهو يرمز إلى <الوقار والعظمة وعلو المكانة>²، ولعلّ هذه الدلالات هي التي جعلت منه اللون الأكثر تدخلا في مصائر الناس منذ أقدم الأزمنة وفي معظم الثقافات على مرّ العصور، والأكثر تشكيلا لتقاليدهم وحساسة تعاملهم مع الأشياء في الحياة، والأوسع استجابة لخوفهم وأحزانهم ومعاناتهم والتفافهم حول ذواتهم وتشبّهم بالمكان³.

إنّه يرمز إلى <أمور مختلفة أي أنه يتغيّر وفق تغيّر الظروف المكانية والزمانية>⁴، ولهذا كان الأسود لون الخوف والتشاؤم، فقد كانت دلالاته سلبية، لأنّه ارتبط بأشياء موجودة في الطبيعة تبعث على النفور والاشمئزاز كارتباطه <بالليل والزفت والسخام، والهباب والرماد المختلف عن الحريق>⁵.

كما اقترن الأسود بالظلام والليل، فكان مصدرا للخوف، لأنّ الأسود هو لون الليل الذي يبعث على الشك والارتياب، ففي الليل تنعدم الرؤية لتترك المجال للظلام، عكس ما نجده في النهار، فالضوء يكشف الطريق وكلّ المخاطر التي يمكن أن يتعرض لها الإنسان، على عكس الليل الذي يثير فينا مشاعر القلق والاضطراب والحيرة.

¹ أبتسام مرهون الصفار: جماليات التشكيل اللوني في القرآن الكريم، ص 264.

² فائق عبد الجبار جواد: اللون لعبة سيميائية، ص 9.

³ ينظر: المرجع نفسه، ص 10.

⁴ ظاهر محمد هزاع الزواهرية: اللون ودلالاته في الشعر، ط 1، دار حامد للنشر والتوزيع-عمان، الأردن، ص 43.

⁵ أحمد مختار عمر: اللغة واللون، ص 34.

ومن جهة أخرى ارتبط هذا اللون بالعالم الآخر وهو عالم الأموات، حيث مصير الإنسان ومآله ومنتهاه، فجاء معبرا عن ظلمة القبر، لذا <رمز الهنود للعالم السلفي باللون الأسود، مقابل العالم العلوي رمزوا له بألوان كثيرة>¹، ومن هنا جاء الأسود معبرا عن كل ما هو مخيف في العالم، فيدعو إلى التشاؤم والنفور.

وفي وقوفنا أمام موضوع الموت يتمثل لنا الأسود بكل تفاصيله، فقد < اعتاد الناس لبس السواد عند الحزن فربطوا السواد بالموت>²، فالأسود يعني نبذ الحياة وملذاتها، ومن هنا كان المصريون قديما يقومون بطقوس في الأيام التي تقام فيها طقوس (أزوريس)، فينصبون > تمثال خشبي لبقرة متشحة بالسواد يرمز للإله إيزيس، وقد يُطافُ به لتمثيل طواف إيزيس في رحلة البحث عن أزوريس>³.

وبما أن السواد رمز للموت والحداد، فإن الآلهة اليونانية في الاعتقاد القديم كثيرا ما تتحكم في مصائر الناس، لأن لها قوى خارقة، هذه القوى تستعملها لتحقيق الخير أو لتحقيق الشر، ولقد عدت (عشتار) سيدة الموت والدمار والخراب؛ فتظهر بوجهها الأسود البشع، كما تظهر أيضا بوجهين مختلفين واحد منير ويرمز للحياة، وآخر مظلم يرمز للموت، وهذه الآلهة أم تلد توأمين: الابن الأبيض، والابن الأسود، فالأول سيد الحياة، والثاني سيد الموت، وصورة الإله تتبدل ولا تلبث على هيئة واحدة، فصورة الإله الأسود قد تغيرت وبدأت تزداد قتامة فتنفصل عن صورة الإله الأبيض، فسقطت منه صفة الألوهة ليتجدد في صورة شيطان⁴.

من الأسباب التي جعلت هذا اللون منبوذا ومكروها عند بعض الشعوب أيضا أنه كان يمثل لون الخدم مثلا كما في الهند، وذلك وفقا للأسطورة التي تقول بأن هذه الطبقة أتت من رجل الإله؛ وبذلك جاءت النظرة التحقيرية للشعب الأسود الذي لم يلق الاحترام والتقدير، فقد شاع أن هذا الشعب ظهر بهذا اللون لأنه نسي في الفرن ولم يجد العناية الكافية⁵.

كما نجد أن معظم الآلهة الموجودة قديما قد وصفت باللون الأسود لأنها الآلهة التي تتحكم في الكون بقوتها وسلطتها، ولهذا فقد < وصف (هادن) عند اليونان، فهو ملك وجهه

¹ أحمد مختار عمر: اللغة واللون، ص 163.

² المرجع نفسه، ص 201.

³ فراس السواح: لغز عشتار، ص 32.

⁴ ينظر: المرجع نفسه، الصفحات 207، 211، 326.

⁵ ينظر: أحمد مختار عمر، اللغة واللون، ص 162.

يرتدي درعا أسود، ويتنقل في عربة سوداء فكأنه الموت ينتقل على سطح هذه الأرض ليختطف من يشاء إلى عالمه >¹. أما في الملحمة الأسطورية "كارل إليغاست" > يتخبر الفارس درعا أسود عندما أجبرته الظروف على إخفاء هويته، بيد أنه في نهاية الحكاية يستعيد براءته ونقاؤه عندما يطرح هذا الدرع الأسود >².

وإذا كان الأسود يحمل القوة والخوف والهلع، فإنه في بعض الأحيان كثيرا ما يحمل الضعف والفساد والألم، وهذا نص للعدراء تبكي المسيح حين استحال جسمه الأبيض إلى اللون الأسود، تقول: > ما أغزر الدم النازف من جراح جسمك الأبيض دون نهاية، ماذا دهاني يا ولدي الحبيب، حتى أقول ذلك؟ أليس لي أن أتساءل أين ما كان من بياض بشرتك، ألم تكن أول أمس وها هي الآن سوداء قاتمة السواد؟ >³.

كما أطلق اليونان على آلهتهم أسماء وألقاب تعبر عن طبيعة كل آلهة، وتبرز ملامحها، فكان اللون الأبيض رمزا للآلهة الخيرة، واللون الأسود رمزا للآلهة الشريرة، ومن أمثلة الألقاب التي أطلقوها نجد ألقاب >الإلهة "ديمثير"، إله ربة خصب الطبيعة، من ألقابها كأم ببيضاء" الأم العظمى"، " الأم الجبل" ومن ألقابها كأم سوداء " الغضوبة" و"السوداء" >⁴.

ولم تقتصر دلالات اللون الأسود على هذا فقط، بل خرجت إلى نطاق أوسع، لذا نجد أن >بعض الشعوب تستخدم أحجار كريمة معينة لكشف الكذب، إذ تتحول إلى اللون الأسود في يد الشاهد الكاذب >⁵، فيتبين من خلالها صدقه من كذبه.

*اللون الأحمر:

يتخذ هذا اللون في المخيال الإنساني دلالات متباينة بحسب السياقات والاستعمالات، فقد ارتبط اللون الأحمر بأشياء طبيعية بعضها يثير البهجة والانشراح، وبعضها يثير الألم والانقباض >⁶، فهو لون الفرح والسرور، كما أنه لون الثقة والتردد، والموت، وقد ارتبط بأمور عديدة منها: أنه لون الدم، لون الأحجار الكريمة، ولون النار، ولون الشفق.

¹ أمل أبو عون: اللون وأبعاده في الشعر، ص9.

² هرمان بلاي: ألوان شيطانية ومقدسة • اللون والمعنى في العصور الوسطى وما بعدها، ترجمة: صديق محمد جوهر، ط1، هيئة أبوظبي للتراث والثقافة (كلمة) -أبوظبي، 2010، ص29.

³ المرجع نفسه، ص221.

⁴ فراس السواح: لغز عشق، ص221.

⁵ أحمد مختار عمر: اللغة و اللون، ص162.

⁶ المرجع نفسه، ص211.

كما ارتبط هذا اللون منذ القديم بدلالات غلبت عليه وهي <الإيماء إلى لون الدم >¹، والحديث عن الدم في حياة البشر يختلف باختلاف السياقات والمواضيع التي يرد فيها، فالدم يمنح الحياة للكائنات وبدونه يصير العيش مستحيلاً، إضافة إلى أن الدم في مواقف أخرى نجده يدلّ على القتل والموت، فيترك دلالة مخيفة في نفوس الآخرين وانطبعا سيئاً عن هذا اللون، كما أنه في مقابل هذه الدلالة هو لون يجسّد عاطفة الحب.

وإذا كان الدم هو أساس قيام الحياة عند البشرية؛ فالأحمر عندئذ لون الخير والبشرى، لأن <المولود يأتي إلى الحياة مع تدفق الدم، ويكون ملطخاً به، بل كانت بعض القبائل تلتطّخ المولود بدم الشاة، لمنحه فرصة أطول في الحياة >²، وهذا الطقس دليل على أنهم أدركوا قيمة الدم فهو مصدر البقاء، فعبروا من خلاله عن تعلقهم وتشبّثهم بالحياة. عُثر على اللون <الأحمر مع الألوان الأخرى على رسوم وجدت على حوائط كهوف رسمت قبل 1500 سنة قبل الميلاد، لكنّ المهم في أخبار الإنسان القديم أنه كان يدفن موتاه في لون أصفر محمر، وتُدّهن عظامهم بلون أحمر، ولعلّه استمد ذلك من دلالة الأحمر على الدم الذي يجري في العروق، والذي هو أساساً يعني الحياة، فدهن العظام باللون الأحمر ربما يمنح الجسد الفاني الحياة >³.

احتل اللون الأحمر مكانة مميزة عند مختلف الشعوب التي تعطي لبعض معتقداتها دلالات لونية؛ حيث > يرى الصينيون أن اللون الأحمر خيرٌ للتعبير عن البهجة في احتفالات الزواج، أما الروس فإنّ الأحمر يساوي الجميل لديهم، لذا اختاروه لِعَلِم بلادهم، ويرمزون به إلى نظامهم الاجتماعي، أيضاً يرمز اللون الأحمر عند الهندوس إلى الحياة والبهجة أما اليابانيون فقد استخدموه لطرده الكابوس >⁴.

فلا غرابة أن يكتسب هذا اللون قداسة عند بعض الشعوب، لارتباطه بالتضحية والشهادة، كما هو الأمر في الدين الإسلامي، وكذا >يرمز الأحمر في الديانات الغربية إلى الاستشهاد في سبيل مبدأ أو دين >⁵، ففي الديانة المسيحية، اعتبر المسيح رمزاً للتضحية

¹ ظاهر محمد هزاع الزواهرة: اللون ودلالته في الشعر، ص43.

² أمل أبو عون: اللون وأبعاده في الشعر، صص15،16.

³ صديقة معمر: شعرية الألوان في النص الشعري الجزائري المعاصر، رسالة ماجستير غير مطبوعة، إشراف: يحيى الشيخ صالح، جامعة منتوري - قسنطينة، 2007، ص43.

⁴ المرجع نفسه، ص43.

⁵ أحمد مختار عمر: اللغة واللون، ص226.

والبسالة، بما تعرض له من عذاب فنزفت جراحه ولذا >أُعطي المسيح عباءة ذات لون أرجواني، أحمر قانِ كلون الدم<¹؛ فأخذ اللون الأحمر بذلك صفة القداسة، وجاء معبرا عن الفداء والصبر والثبات.

واعتبرت الحروب ونشوبها مدعاة لسفك الدماء الحمراء، وهذا ما نجده عند القدماء المصريين، حيث كانت آلهتهم (سيخت) > تبدو في أقسى أشكالها كإلهة للحرب والمذابح الجماعية...، وقد باشرت حملة إبادة ضد الجنس البشري انتقاما للإله رع الذي تنكر له الناس، ولكن الإله رع يخشى فناء البشرية فيتدخل لدى الآلهة لتوقف حملتها دون أن يلقي منها أدنا صاغية، إذ تجيبه وهي سكرى بالدماء، أن قلبها ينشرح للذبح وسفك الدماء، عند ذلك يأتي بسبعة آلاف برميل من شراب مسكر أحمر مصنوع من مزيج الجفنة وعصير الرمان، فيسكبها في ساح المعمة، فتشربها "سيخت" عن آخرها<²، ومن هنا كان لون الدم لون الخمر، إذ وجد فيه القدماء بديلا لمنع سفك الدماء؛ حيث كان العربي قديما يغمس يده في الدماء إعلانا عن صلح وقع وإيدانا بانتهاء الحروب.

وفي مصر القديمة > كانت هناك خواتم، حمراء يرتديها الجنود حين يقابلون الأعداء حتى لا يُجرحوا، وإذا جُرِحوا حتى لا ينزفوا<³، ظننا منهم بأنها ستحميهم من الأخطار والشور التي قد تلحق بهم أثناء الحروب.

عُدَّ اللون الأحمر لون الحرب والدماء لذا كانت > مشاهد المعارك الجرمانية تستصرخ كل ما هو أحمر اللون؛ إذ كان المحاربون يعمدون إلى صبغ الشعر بالأحمر قبل الخروج للمعركة، ويسربلون آلهة الحرب التي كانوا يؤمنون بها خاصة (وتان ودونار) بعباءات حمراء وكان الرومان يفعلون الأمر ذاته مع Mars إله الحرب عندهم<⁴، أما في احتفالات الربيع فكان الناس يقومون بطقوس دموية، وذلك بتجريح أنفسهم فيسيل الدم، وهذا الدم هو بمثابة قربان للآلهة، والهدف من كل هذا هو إظهار الحزن على أدونيس المقتول<⁵.

أما عن علاقة اللون الأحمر بالنار، فهذا يعود إلى أن معظم الديانات ترمز لجَهَنم بهذا اللون، حيث عُدَّ لون الشيطان فقيل قديما > أن الساحرات اللاتي عَقَّتن ميثاقا مع الشيطان

¹ هرمان بلاي: ألوان شيطانية ومقدسة، ص38.

² فراس السواح: لغز عشطار، ص202.

³ أحمد مختار عمر: اللغة و اللون، ص163.

⁴ هرمان بلاي: ألوان شيطانية ومقدسة، ص ص134، 135.

⁵ ينظر: فراس السواح: مغامرة العقل الأولى دراسة في الأسطورة -سورية وبلاد الرافدين، ط11، دار علاء الدين-دمشق، (دت)، ص ص360، 361.

مألّهن المحتوم هو الهلاك بالنار الحمراء¹، وكان الأحمر أيضا لون الشياطين حيث يقرأ الكاهن التعاويذ ويؤديها وهو يلبس <ملابس حمراء وهو اللون الذي تخشاه الشياطين >². بالرغم من كون اللون الأحمر يرمز للهلاك، إلا أنّ بعض القبائل تستعين وتستخدم بعض الأحجار الكريمة لأغراض علاجية فهي > تطرد الحمى وتوقف ارتشاح العين بالدمع، وتقلل الحيض >³، إضافة إلى هذا فقد تم اكتشاف مجموعة من المقابر الملكية تحتوى على ممرات > كانت تلك الممرات لنسوة يرتدين الملابس الحمراء، ويتزيّن بالحلي والأحجار الكريمة وبجانب بعضهن قيثارات ذهبية >⁴.

كما أطلقت كلمة "الحر" على قوم كانوا يعيشون في القارة الأمريكية >وأطلقوا عليهم اسم الهنود الحر، لأنّ لون جلودهم يقترب من حمرة النحاس >⁵.

*اللون الأخضر:

يُعدّ اللون الأخضر اللون الوحيد الذي اتفقت الشعوب على دلالتها لموجبة فهو رمز للخصب والنماء؛ > لأنّه مستمد من النباتات، وبعض الأحجار الكريمة كالزمرّد والزبرجد >⁶، ومنه دلالاته على النعيم وال⁷نضارة والحدائق الغناء، فهو يوحي بالتفاؤل ويبعث على الأمل. واللون الأخضر عَدَّه البعض أول الألوان التي ظهرت في الوجود طبعاً بعد الأبيض فهو يمثل الحياة > ففي اليوم الثالث بعد إخراج النور من الظلمة، بدر الرّب في الأرض بدور الأعشاب والنباتات الخضراء >⁸.

أمّا في الأساطير القديمة فقد كان الأخضر شديد الصلة بكل ما هو إلهي مقدس، لهذا نجد "أدونيس" وما مثله من صورة الموت والانبعاث، فهو ربّ النبات والخصب والخضرة، حيث كانت النسوة في أعياده يقيمن بغرس الأزهار والنباتات في سلال عريضة، فتورق

¹ خزعل الماجدي: متون سومر* التاريخ، الميثولوجيا، اللاهوت، الطقوس، ط1، الأصلية للنشر والتوزيع - عمان، الأردن، 1998، ص135.

² المرجع نفسه، ص346.

³ أحمد مختار عمر: اللغة و اللون، ص165.

⁴ خزعل الماجدي: متون سومر، ص318.

⁵ عبد السلام الترماني: الرق ماضيّه وحاضرّه، (د.ط)، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب- الكويت، العدد23،

1979، ص142.

⁶ أحمد مختار عمر: اللغة واللون، ص210.

⁸ هرمان بلاي: ألوان شيطانية مقدسة ، ص136.

وتزهر، إلا أنها لا تلبث أن تموت، فكان نمو هذه النباتات دليل على القوة والتجدد لهذا الإله، وموتها يعني مصرع أدونيس¹.

وبما أن اللون الأخضر يرمز للخلود، فهو لون السعادة والعتاء والخير، ومنه وصفت "عشتار" بأنها خضراء، فمع >الربيع تنتفض من مرقدتها ملونة وجه البسيطة بكل أخضر بهيج <²، ومن باب التفاؤل بالأخضر أطلق المصريون على آلهتهم أسماء تحمل معنى الخضرة، فمن ألقابها أنها > خالقة كل نبت أخضر والآلهة الخضراء <³.

وفي مسألة البحث عن الخلود نجد في ما وقع في "ملحمة جلجامش"؛ حيث سعى الملك في سبيل الحصول على نبتة الخلود إلا أنه ضيّعها أخيراً، ففقد هذه الصفة، وانتقلت هذه الصفة إلى الحية التي استطاعت انتزاعها منه.⁴

كما نلاحظ حضور هذا اللون في بعض المناسبات الدينية التي أضفت عليه سمات وجعلت منه لون > الإخلاص والخلود والتأمل الروحي، ويسمى لون الكاثوليك ويستعمل في عيد الفصح ليرمز للبعث⁵، أما عند العرب فإنه يحيل إلى دلالات النعيم الدائم في الجنة كما في قوله تعالى ﴿ يلبسون ثياباً خضراً من سندس وإستبرق ﴾⁶، ومن ثمّة > اعتبر الأخضر لون الألوان عند المسلمين <⁷.

وبما أن اللون الأخضر رمز للطبيعة والحياة بكل ما فيها من مصادر للعيش، كان هذا اللون لون الجمال والبهاء، يعكس مظهر صاحبه الجمالي؛ ومن ذلك ما نجده في وصف مظهر "ترسيتان" فهو > بطل فارس يرتدي درعا أخضر، ذاتيجان ذهبية ثلاثة وعباءة خضراء ذاتيجان ذهبي <⁸، ومنه جاء اللون الأخضر للدلالة على الوجاهة والقوة أيضاً.

¹ ينظر: فراس السواح: مغامرة العقل الأولى، ص 59.

² فراس السواح: لغز عشتار، ص 107.

³ المرجع نفسه، ص 320.

⁴ ينظر: طلال حرب: أولية النص* نظرات في النقد والقصة والأسطورة والأدب الشعبي، ط1، المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع- بيروت، لبنان، 1999، ص 95.

⁵ أحمد مختار عمر: اللغة واللون، ص 165.

⁶ سورة الكهف، الآية 31.

⁷ أمل أبو عون: اللون وأبعاده في الشعر، ص 25.

⁸ هرمان بلادي: ألوان شيطانية ومقدسة، ص 131.

وهو في أماكن أخرى لون الحق والصدق؛ حيث > كان الساحر في مصر يرسم على لسانه علامة الحق بمداد أخضر، وكان الأخضر في مصر يستخدم في السحر والتمايم الخاصة >¹.

*اللون الأصفر:

استمدت دلالات اللون الأصفر من الطبيعة، إلا أن هذه الدلالات تختلف وتتعدد، فهو لون محبب يحمل الخير والجمال حيناً، لأنه لون الشمس، الذهب، والنحاس، وبعض الثمار مثل الزعفران، وفي المقابل هو لون الضعف والانكسار لأنه > مرتبط بالدبول وجفاف النباتات، ويعني المرض والدبول >².

كما ارتبط هذا اللون بنور الشمس وأشعتها فكانت الشمس مقدسة في بعض الديانات القديمة، لذا كان الأصفر رمزاً >للإله (رع) في مصر القديمة وهو إله الشمس، وقد تخيل المصري كذلك الشمس على شكل عجل ذهبي تلهه بقرة السماء في الصباح >³، واللون الأصفر تختلف وتتغير إحياءاته بتغير كثافته فقد قيل: > أن هناك أصفر شمسي إنه رمز للفتوة والقوة والذهب الذي يرتديه الأباطرة والملوك، لكن الأصفر الضوئي، ذهب باهت، هو رمز الثبات والبلوغ والخيانة >⁴.

اكتسب الأصفر قداسة لدى الديانات المسيحية فهو لون مقدس في المسيحية الأوربية، والتي استخدمته >في اللوحات المقدسة على شكل خلفيات من أوراق الشجر الذهبية داخل الكنائس >⁵، وقداسته تكمن أيضاً في كونه > اللون الملكي، وكان شعار رجال البوذا ورجال الدين، وهو شعار الربيع عند قدماء الألمان، وهو لون مقدس في الصين والهند، وعند أوروبا المسيحية >⁶.

ومن أهم أسباب قداسة هذا اللون ارتباطه بالآلهة، فالسومريون استعملوه في طقوس غسل الإله وتقديم الأضاحي قربانا له؛ حيث كان > يسلخ جلد الكبش وقد يوضع في الجلد سمكة وسلحفاة من الذهب و الفضة >⁷.

¹ أمل أبو عون: اللون وأبعاده في الشعر، ص25.

² ظاهر محمد هزاع الزواهرية: اللون ودلالته في الشعر، ص120.

³ أمل أبو عون: اللون وأبعاده في الشعر، ص25.

⁴ لوك بنوا: إشارات رموز وأساطير، تعريب: فايزكم نقش، ط1، دار عويدات للنشر والتوزيع - بيروت، لبنان، (د.ت)، ص72.

⁵ أحمد مختار عمر: اللغة واللون، ص163.

⁶ خزعل الماجدي: متون سومر، ص318.

⁷ المرجع نفسه، ص366.

كما جاء هذا اللون دالا على الموت والانتهاى، وهذا بسبب ما يصيب الإنسان من شحوب وصفرة عند المرض > فالصفرة من حيث العموم تدل على المرض <¹، فجاء الأصفر معبرا عن فقدان الحياة والحيوية، ولعلّ فصل الخريف خير مثال للتعبير عن انتهاء الحياة بتساقط أوراق الشجر الصفراء.

ولا يعني اللون الأصفر المرض والموت فقط، بل إنّه لون الخداع والغش، لأنّه اللون الذي انفرد بأداء > مهمة دلالية لا يبتعد عنها وهي إنتاج الزيف والخداع <²، وهذه الدلالة تتجلى في قصة "أبناء أيمن الأربعة" عند > قيام المشعوذ "مالغيز" بالتحول في طرفة عين إلى هيئة متسول بئس في أرذل العمر، يتأتى ذلك بتناول الساحر جرعة من شراب مستخلص من أعشاب، يحوّله كليا إلى اللون الأصفر أو لون الزعفران <³، فلا غرابة أن يوحي الأصفر بتلك الصورة البشعة المنحطة التي تحوّل إليها الساحر.

اكتسب اللون الأصفر في مواقف عديدة إichاءات سلبية، حيث استخدم في العصور الوسطى على أنه لون ملابس الغرباء من اليهود؛ إذ فرض عليهم المجمع الكنسي أن يضعوا إشارات صفراء، يُستحسن أن تكون فوق موضع القلب، وهذا لأجل تمّوّههم عن باقي الناس، لأنهم كانوا دائما محل الاتهام بالخيانة والغدر وعدم الولاء.⁴

بالإضافة إلى هذا تحدث "جاكوب فان ميولانت" عن قوم يعيشون في شرق الهند يتصفون بأنهم > ذوي أجسام ضخمة قوية و"عيون صفراء"، وفي موضع آخر يتحدث عن تخريب "القدس" وهلاك المسيحيين، فوصف زعيم الغزاة بأنه سيكون رجلا ذا عيون سوداء، وخدود حمراء... وهذا القائد يحمل راية صفراء هذه الياة تحمل رسالة مكتوبة <⁵.

*اللون الأزرق:

تغيرت إichاءات اللون الأزرق، بتغيّر درجات لونه، فالأزرق الفاتح عطي دلالة مختلفة عن الأزرق القاتم، وذلك تبعا لدرجة اللون وشبته، فالأول يمثل الصفاء والشفافية والثاني

¹ ظاهر محمد هزاع الزواهرية: اللون ودلالته في الشعر، ص 120.

² المرجع نفسه، ص 116.

³ هرمان بلاي: ألوان شيطانية ومقدسة، ص 130.

⁴ ينظر: المرجع نفسه، ص 127، 129.

⁵ هرمان بلاي: ألوان شيطانية ومقدسة، ص 129.

يثير النفور والكرهية، وهذا راجع لتجسيده لكائنات تشعرنا بالنقزز؛ ولأنه > ارتبط بالغول والجن والقوى السلبية في الأرض <¹.

يبعث هذا اللون على الهدوء والسكينة، لأنه يمثل > الصفاء والشفافية ... وغالبا ما يتصل بعالم السماء والأرض، من ماء المحيطات وغيرها <²؛ فاقترن بلون الماء الصافي النقي، حيث نجد في أدب الرحلات المصرية وصفا للثعبان الذي > كان لونه فضيا عليه نقوش ذهبية وزرقاء وكانت الجزيرة محاطة بالمحيط الأزرق <³.

ولما كان الأزرق القاتم يمثل الموت؛ لأنه قريب من اللون الأسود الذي عدّ لون الفناء والدمار، فقد استعمله > الصينيون رمزا للموت في حين أن غيرهم يستخدم الأسود <⁴؛ فدلالات اللون الأزرق عند الشعوب تختلف باختلاف كثافة اللون؛ لذا كان > الأزرق الفاتح يثير الأوهام في حلم النهار، والأزرق الغامق القريب للأسود هو صورة الحلم الليلي <⁵.

ومن استعمالات اللون الأزرق في حياة الشعوب، أن >لباس الحزن في غرناطة والأندلس كان أزرق اللون يعود إلى الأزرق القاتم الذي يقربه من الأسود <⁶.

جاء اللون الأزرق أيضا ليبدل على الإثارة والخوف والفرع، وخاصة أثناء الحروب والقتال؛ وهذا > ما ألصقه الرومان بالبرابرة الشماليين من السيلبت والأقوام الجرمانية الذين اعتادوا وفقا لما ورد على لسان قيصر وتيرس طلاء أجسادهم باللون الأزرق ليقعوا في نفوس أعدائهم الرعب القاتل <⁷.

أما في مجال قداسة الأزرق وارتباطه بالجانب الديني فإنه يجسد مثلا عند اليهود >لون الرب يهوه، وهو أحد الألوان المقدسة عندهم <⁸.

استمر تقديس اللون الأزرق إلى العصور الوسطى، حيث رمزوا به لكل مقدس؛ فالعذراء عند المسيحيين كانت تتشح بكل ما هو أزرق، كإشارة واضحة إلى إيمانها الراسخ الأبدي، إلا أن قداسة الأزرق وعلاقته بالعذراء، لم يلبّ دون حمله لدلالات منافية، فهو لون الكذب

¹ أحمد مختار عمر: اللغة واللون، ص 164.

² ظاهر محمد هزاع الزواهرة: اللون ودلالته في الشعر، ص 60.

³ أمل أبو عون: اللون وأبعاده في الشعر، ص 28.

⁴ أحمد مختار عمر: اللغة واللون، ص 166.

⁵ لوك بنوا: إشارات رموز وأساطير، ص 72.

⁶ أحمد مختار عمر: اللغة واللون، ص 218.

⁷ هرمان بلاي: ألوان شيطانية ومقدسة، ص 165.

⁸ أحمد مختار عمر: اللغة واللون، ص 164.

والخداع والرياء، لذا أُجبرت الفئة المنحرفة أخلاقياً في العصور الوسطى على ارتداء اللون الأزرق، فكان رمزاً للداعرات والأرستقراطيين السكارى، والراقصات، فهؤلاء أُجبروا على ارتداء عباءات ذات قطنسوة زرقاء¹، وهذا للدلالة على فسادهم وانحراف أخلاقهم.

ومن جهة أخرى يدلّ الأزرق على الطهارة والخير، فـ > اللون الأزرق والبنفسجي يدلان على الطهارة والإيمان، وانه كانت تعلق على رقبة الصبي حجارة سوداء وبنفسجية لتجعل الصبي مطيعاً لوالديه <²، لأنها تحميهم من الحسد وتحفظهم من الأذى، وربما هذه العين الزرقاء ذات > علاقة بالإلهة أرتميس إلهة الصيد عند اليونان، فقد كان من مهامها رعاية الأطفال حديثي الولادة، والنساء المنجبات، وحمائتهن من المرض والخطر، والحسد، وهذه الإلهة وصفت بأنها ذات عيون زرقاء، فكانت تدعى "ذات العيون الزرقاء"³.

وبما أن هذا اللون هو لون السماء الصافية، فقد > كانت سقوف المعابد في مصر زرقاء، وأراضيها خضراء <⁴، فالزرقعة تمثل الطهارة للأماكن المقدسة، في حين تنوحي الخضرة كما عرفنا سابقاً بالخير والنعيم والفوز.

2/ اللون في الموروث الجاهلي:

* اللون الأبيض:

فضّل العربي اللون الأبيض وموّزه عن سائر الألوان الأخرى، لأنه لون الخير والطهر والنقاء والجمال؛ فارتبط هذا اللون عنده بكلّ ماتحبه النفس وتميل إليه، لذلك اعتبر اللون المنتخب في بشرة الإنسان بإثارته للجمال والخير، إنه لون الحياة والاستمرار، لكن دلالاته تأخذ منحى آخر في الشعر > لأنه يذكر بالقبر <⁵.

جسد الأبيض معان رائعة عند العرب، فكان لون الصلاح والفلاح، حيث أورد "ابن سيرين" في تفسيره لرؤيا الأبيض في المنام أن > رؤية العنب الأبيض عصابة وخير <⁶، كما أن > الفرس الشهباء امرأة متدينة <⁷.

¹ ينظر: هرمان بلاي: ألوان شيطانية ص ص139، 140.

² ابتسام مرهون الصفار: جماليات التشكيل اللوني في القرآن الكريم، ص 343.

³ أمل أبو عون: اللون وأبعاده في الشعر، ص ص28، 29.

⁴ أحمد مختار عمر: اللغة واللون، ص 165.

⁵ المرجع نفسه، ص 208.

⁶ الهمام بن سيرين: تفسير الأحلام الكبير، (د.ط.)، دار الفكر-بيروت، لبنان، 2008، ص 235.

⁷ المرجع نفسه، ص 135.

أكثر العرب من استخدام اللون الأبيض، فوصفوا المرأة بالبياض للدلالة على جمالها، من ذلك قول " امرئ القيس":

مهفهفة بيضاء غير مفاضية
تراثها مصقولة كالسججل¹

وصف العرب الأخلاق الكريمة بالبياض، فكانوا يقولون > فلان أبيض وفلانة بيضاء فالمعنى نقاء العِرض من الدنس والعيوب<²، وفي المقابل من هذا استعمل هذا اللون بدلالات سلبية؛ كالموت الذي دللوا عليه بقولهم: > الموت الأبيض هو الذي يأتي فجأة، ولم يكن قبله مرض يُغَيِّر لونه<³، وهذا ربما لكي يفرِّقوا بين الموت قتلا بفعل فاعل، وبين الموت الطبيعي.

أما ذمّ العرب للأبيض وإنكارهم له، فقد جاء من باب التشاؤم من القبر، فشيب شعر الرأس يدلّ على الكبر، والقرب من الموت، من ذلك ما قاله "الأعشى" في ذمه:

ولقد ساءها البياض فلا سكت
بحجاب من دوننا مسدوف⁴

فإذا كان البياض في الشيب مكروها، فالسواد في الشعر يوحى بالنضارة والشباب، وفي المقابل فسوّ > الشيب في اللحية وقارا وهيبة <⁵، كما أنّ من رأى في المنام > لحيته بيضاء براءة نال عزا وجاها، واسما وذكرها في البلاد، لأنّ لحية إبراهيم عليه السلام بيضاء <⁶، ومنه كان الأبيض حاملا للبشرى والصلاح.

عُرف هذا اللون في بعض مقدسات الجاهليين كالأصنام التي كانوا يعبدونها، ومن هنا يبدو لنا سبب تقديسهم له؛ لكونه لون آلهتهم، فوصف "ذو الخلصة" بأنه > مروة منقوشة عليها كهيئة تاج <⁷، وكانوا يسمونه بالمرأة البيضاء⁸، كما عبت قریش " اللات" وهي عبارة عن > صخرة بيضاء منقوشة <⁹، ولعلّ المكانة التي احتلها اللون الأبيض في حياة العرب

¹ امرؤ القيس: الديوان، ط3، دارصادر- بيروت، بيروت، 2007، ص40.

² ابن منظور: لسان العرب، مادة (بيض)، ج1، ص355.

³ جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ط2، (دن)، 1993، ج5، ص148.

⁴ الأعشى: الديوان، (د.ط)، دارصادر-بيروت، لبنان، 1995، ص25.

⁵ ابن سيرين: تفسير الأحلام الكبير، ص66.

⁶ المرجع نفسه، ص67.

⁷ جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج6، ص273.

⁸ المرجع نفسه، ج6، ص38.

⁹ المرجع نفسه، ج5، ص288.

جعلتهم يفضلون الذبائح البيضاء في تقربهم لآلهتهم، حيث ذهب "هينغز" إلى أن > العرب كانوا يفضلون اللون الأبيض في ذبائحهم <¹.

كما أن إلهة الجمال عندهم هي الزهرة، حيث استطاعت هذه المرأة أن تُقنع الملكين "هاروت" و"ماروت" بضرورة صعودها للسماء، فلقتاها كلمات الصعود، وعندما صعدت وحاولت النزول نسيت كلمة الهبوط، فعلمت هناك ثم صارت معبودة للجمال عند الجاهليين². وفي صورة من صور تقلب دلالات هذا اللون نراه يكتسب دلالات الطهر والخير، لذا اختاره الجاهليون > لونا للميت فقد كانوا يكفنون موتاهم بكفن أبيض مصنوع على الأكثر من الكتان <³؛ وهذا للدلالة على الطهارة والخلو من الدنس، ومنه كان اللباس الجديد الأبيض الهفيف جاه الرجل وعزه ودينه وأمانته، إذ يرى "ابن سيرين" أن لابس الثياب البيض صالح دينا ودنيا⁴.

وفي قصص ألف ليلة وليلة نجد تحول > المسلمين إلى سمك لونه أبيض <⁵، للدلالة على الطهارة والصفاء، واللون الأبيض هو لون كفن الميت عند المسلمين، وقد ورد ذكره في القرآن الكريم في مواطن كثيرة فدلّ على وجوه الفائزين بالجنة لقوله تعالى: ﴿وَأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم بها خالدون﴾⁶.

* اللون الأسود:

نظر العربي إلى اللون الأسود نظرة خاصة، دون سائر الألوان الأخرى، ولعلّ هذا راجع لطبيعة هذا اللون وانطباعه في فكره، فقد عبّر عن خلاله عن كلّ ما ينفر منه القلب، وتكرهه النفس، ولهذا لم يعتبروا الأسود لونا؛ بل > هو انعدام اللون <⁷، ومن هذا المنطلق سُمي > المكفوف مكفوفاً لأنه لا يرى إلاّ السواد ... والظلمة والسواد واحد لا يختلف في ذلك اثتان <⁸.

¹ فضل بن عمار العماري: الدم المقدس عند العرب، ص133.

² ينظر: فضيلة عبد الرحمان حسين: فكرة الأسطورة كتابة التاريخ، (د.ط.)، دار البيازوري العلمية للنشر والتوزيع-عمان، الأردن، (د.ت)، ص63.

³ جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج5، ص133.

⁴ ينظر: ابن سيرين: تفسير الأحلام الكبير، ص107.

⁵ مجهول مؤلف: ألف ليلة وليلة، ط2، دار المشرق - بيروت، 1994، ج1، ص38.

⁶ آل عمران، الآية 107.

⁷ أمل أبو عون: اللون وأبعاده في الشعر، ص31.

⁸ محمد علي بن حزم الظاهري: الفصل في الملل والأهواء والنحل، ط1، مطبعة الموسوعات - مصر، ج5، (د.ت)، ص137.

ولعلّ ما يميّز دلالات اللون الأسود عند العربي في الموروث القديم هو اقترانه بالظلام؛ فالظلام يمثل المجهول، لانعدام الرؤية بحضوره، إنه مصدر الخوف والشك والارتياح، يرتبط بظهور كائنات خرافية كالغول، والجن؛ وفي هذا الصدد نذكر قصة "أمية بن أبي الصلت" مع الشيخ المسيحي حين خاطبه فقال: < إكّ لمتبوع، فمن أين يأتيك صاحبك؟ قال: من أدني اليسرى، قال: بأيّ الثياب يأمرك؟ قال: بالسواد، قال: هذا خطيب من الجن >¹.

أنكر العرب هذا اللون لارتباطه بظلمة القبر فتشاءموا منه؛ لأنّه يذكرهم بلون الغراب والعالم السفلي، ولعلّ ارتباطه بالغراب قفز إلى المخيلة العربية انطلاقاً من قصة "قابيل وهابيل" التي وردت في القرآن الكريم، فقد مثّل دور المرشد كي يوارى سواته تحت التراب كما سيأتي ذكر القصة في عنصر آخر.

تشاءم العرب من الغراب بسبب لونه، وهذا يحيلنا على قصته مع الأسود، حيث قيل إنّه اكتسب لونه الأسود من جراء عصيانه لنوح عليه السلام؛ فحدّت عليه اللعنة التي حولته من اللون الأبيض إلى اللون الأسود المذموم وذلك <عندما فرّ هاربا من نوح ولم يعد إليه، دعا عليه نوح فكانت اللعنة سببا في سواد لونه كما قيل، وسبب سواد لونه هو أنّه تقاعس في نجدة الإنسان، ويعتقد بأنّ الغراب كان في وقت ما أبيض ثمّ تحوّل إلى اللون الأسود بسبب شقائه أو بسبب اللعنة التي أنزلها به نوح >².

وأمام هذه النظرة التشاؤمية من اللون الأسود تطيّر العربي من رؤية الغراب؛ فلا عجب أن نراهم قد أطلقوا على هذا الطائر صفات منفردة فقالوا: غراب البين، الغراب الأبقع، وأما قيل < لكلّ غراب غراب البين لسقوطها في مواضع منازلهم... إذا بانوا عنها >³، لذا استحضر الجاهليون الغراب في أشعارهم من باب التشاؤم والحزن على الراحلين عنهم يقول النابغة:

رغم الغرابِ لِحَدَثنا غداً وبذلك خربنا الغـ نافع الأسود⁴

اتخذ الأسود دلالات الحزن والخراب والموت عند الإنسان الجاهلي؛ وهي دلالات غدتها تصورات حلمية عبر الرؤيا أو الحلم؛ حيث ذهب "ابن سيرين" إلى أنّ من رأى وجهه أسود مغبر دلّت رؤياه على موته¹،

¹ أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، تحقيق: إحساس عباس وآخرون، ط1، دار صادر- بيروت، لبنان، 2002، ج4، ص100.

² علي عبد العزيز أبوسنيسة: الغراب في الشعر الجاهلي، رسالة ماجستير، إشراف: إحسان الديك، جامعة النجاح الوطنية - نابلس، فلسطين، 2012، ص33.

³ أبو عمرو الجاحظ: الحيوان، تحقيق: عبد السلام هارون، ط2، مكتبة مصطفى البابي الحلبي - مصر، 1965، ج3، ص459.

⁴ النابغة الذبياني: الديوان، تحقيق: محمود أبو الفضل إبراهيم، ط2، دار المعارف - القاهرة، (د.ت)، ص38.

كذلك <رؤية العنب الأسود في وقته خوف ومرض>².

ولكن أكثر ما يُعطي تصورا غرائبيا للأسود عند الجاهليين ارتباطه بالعالم السفلي؛ ذلك العالم الذي تمثله الآلهة الوثنية في أغلب الأحيان، حيث قيل عن "خالد بن الوليد" حين أمره الرسول صلى الله عليه وسلم، بقطع سمرة العزى، فخرجت عليه عجوز شمطاء > فإذا هي بحبشية نافشة شعرها، واضعة يدها على عاتقها، تصرف بأنيابها...³، ومن قصص العرب المرتبطة ببعض الطقوس الدينية للآلهة، أن "عك" كانت إذا خرجت للحج أخذت معها غلامين أسودين يسيران في المقدمة ويقولان > نحن غرابا عك، فتقول عك بعدهما عك إليك عانية، عبادك اليمانية، كيما نحج ثانية >⁴.

إن دلالة اللون الأسود على فداحة المواقف وضياع المبتغى، هو ما جعل العرب يستعملونه للدلالة على المصائب وسوء الحظ العاثر من خلال عبارات كثيرة مثل > اسوتت الدنيا في وجهه >⁵، كما دلّ الأسود في أحيان أخرى > على الحقد والبغضاء والكره، حيث وصفت العرب الأعداء بأنهم سود الأكباد يريدون العداوة، وأن الأحقاد قد أحرقت أكبادهم⁶. لم يكن التشاؤم في حياة العربي من الغراب وحده، بل تعدى ذلك إلى كل شيء تمثلوا فيه الفساد والشر؛ حيث يُروى عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال: > عليكم بالأسود ذي النكتتين على عينيه، فإنه شيطان >⁷، ليحثنا على عقر الكلب الأسود؛ لأنه لا يضر الخير ولا فائدة منه.

وبرغم الدلالات السلبية التي يحملها الأسود في الموروث العربي القديم، فإن هذا لا ينفي حمله لدلالات إيجابية؛ إذ دلّ على السيادة والسؤدد في مواضع أخرى، حيث أكد "ابن سيرين" أن سواد شعر اللحية في الرؤيا > يدلّ على الاستغناء إن كان حالكا، فإذا ضرب السواد

إلى الخضرة نال ملكا ومالا كثيرا، ولكن يكون طاغيا لأنها صفة لحية فرعون >⁸.

¹ ابن سيرين: تفسير الأحلام الكبير، ص 58.

² المرجع نفسه، ص 235.

³ هشام بن محمد بن محمد بن سائب الكلبي: الأضنام، تحقيق: أحمد زكي باشا، ط 3، مطبعة دار الكتب المصرية-القاهرة، 1995، ص 25.

⁴ المرجع نفسه، ص ن.

⁵ أحمد مختار عمر: اللغة واللون، ص 203.

⁶ جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج 5، ص 227.

⁷ الجاحظ: الحيوان، ج 3، ص 203.

⁸ ابن سيرين: تفسير الأحلام الكبير، ص 66.

أما فيما يخص الثياب السوداء فإنها > صالحة لمن لبسها في اليقظة ويعرف بها وهي سؤدد ومال وسلطان <¹، وكذلك رؤية العدو في ثياب سود تدل على الخير، كما فسّر ذلك "ابن سيرين": > رأيت كأن عدوا لي فقيها عليه ثياب سود، وقلنسوة سوداء، ويركب حمارا أسود، فقال له: قلنسوته السوداء توليه القضاء والحكم، والثياب سؤدد يصيبه، والحمار الأسود خير ودولة مع سؤدد يناله <².

بالإضافة إلى أن الأسود في المنام يعني البشرى، إلا أنه أيضا يحمل معنى الحزن والحداد، فالعربي في العصر الجاهلي كان يرتدي العمامة السوداء مثلما نجد ذلك عند "امرئ القيس" الذي لبس > عمامة سوداء وكانت لا تعتم بالسوداء إلا في التراث <³، وهذا لأخذ تار أبيه المقتول من بني أسد، ونشير هنا بالدلالات السلبية لهذه الألوان في الواقع ولكتفسيرها في المنام أو الرؤيا أعطاه دلالات إيجابية.

والملاحظ عدم اكتساب هذين اللونين لدلالات ثابتة وتأرجحهما بين الجميل والقبيح، المفرح والمحزن ...

* اللون الأحمر:

مثّل اللون الأحمر عند الجاهليين ثنائية الحياة والموت؛ وذلك من خلال لارتباط بالدم، سواء أكان دم المولود أو دم القتيل، كما دلّ على أشياء أخرى فهو لون النار، والذهب، ولون السماء.

عرف اللون الأحمر عند العرب بأنه لون الحياة؛ إذ يصاحب خروج المولود من بطن أمه وما ينشئ عنه من تدفق الدم. غير أن حياة الإنسان العربي التي لا تعرف الاستقرار والهدوء بسبب المعارك والحروب، هي التي أدت إلى ارتباط الأحمر بالدم، حيث استعملت عبارة > أحمر البأس <⁴ للدلالة على قوة الحرب واشتدادها، ومنه كان الأحمر ممثلا للموت فتشاع منه العرب وتطيروا كما حدث في قصة الشاب الذي قتل الجن بالكعبة⁵، مما أدى إلى نشوب حرب مع الجن.

¹ ابن سيرين: تفسير الأحلام الكبير، ص104.

² المرجع نفسه، ص105.

³ امرئ القيس: الديوان، ص15.

⁴ ابتسام مرهون الصفار: جماليات التشكيل اللوني في القرآن الكريم، ص148.

⁵ ينظر: عبد الله بن أحمد الأزرق: أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، (دط)، المطبعة الماجدية-مكة المكرمة، ج2، (د.ت)، ص350.

وفي ميدان الحرب كذلك اعتبرت الناقة نذير شؤم مثلما جاء في قصة "البسوس" فقد كانت الناقة طرفا في اشتعال الحرب لسنين طويلة > وجسّدت صورة ربة الحرب في العصر الجاهلي بالناقة التي تلقح الأسنة والرماح، فتحمل حملا كريها، وتدر دما أحمر مشؤوما، ولعل هذا الاعتقاد جاءهم من (قدار ثمود) الذي دخل المجتمع الجاهلي بعقره ناقة صالح عليه السلام¹، ليحمل الأحمر معنى الخراب والفناء، وهذا ما جسّد "زهير" في شعره عن الحرب:

متى تعوّها يعوّه لـ نميمة وقصبر إنا ضريتوه ^{فضم}

وتلقح كشافا ثم تتج ^{فتم}

فتعركم عك الرجي بثفالها

كأحمر عادٍ ثم ترضع ^{فضم}

مروكم غلمان أشم ^{كهم}

فالشاعر يذم الحرب لما تخلفه من والأهوال، فهي لا تبقي على أخضر ولا يابس، وضرب لهم مثلا بعاقرة ناقة صالح وما حلّ بقومه عندما غضب الإله عليهم.

ولعل قصة "الحارث بن حلزة" التي وقعت بين قبيلته وبني ثعلب، خير دليل على ضراوة الحرب وسفك الدماء، حيث قال "عمرو بن كلثوم": > أرى والله الأمر سينجلي عن أحمر، أصلح، أصم من بني يشكر³، ونتيجة لما ينتج عن الحروب من تحالفات فقد كان من شأن الجاهليين إذا > تحالفوا أن يغمسوا أيدهم في الدم، كالذي كان من أمر حلف لعقة الدم؛ حيث غز المتحالفون أصابعهم في جفنة مملوءة دما، ثم لعقوها، فسموا لعقة الدم⁴.

ومن العادات التي مارسها الجاهليون والتي تتعلق بالموت والدم، أنهم كانوا يلجؤون إلى > إسالة دم الذبائح على القبور أو تضريحه بتلك الدماء، فيُعقر على قبور الموتى عند إهالة التراب على الميت⁵، وهذا رما لمنحه الخلود وهو ما نجده في درّ > التراب الأحمر على المقابر؛ وهو لون الدم الذي يعبر عن تواجده وعن استمرار الحياة بالنسبة للمتوفى، وبذلك ينعم بالخلود في العالم الآخر⁶، فالأحمر هنا يعبر عن إعادة بعث الحياة للأخر.

¹ ابتسام نايف صالح أبو الرب: صورة الحرب وأبعادها الأسطورية في الشعر الجاهلي، رسالة ماجستير غير مطبوعة، إشراف: إحسان الديك، جامعة النجاح الوطنية - نابلس، 2006، ص58.

² زهير بن أبي سلمى: الديوان، شرحه وقدم له: علي فاعور، ط3، دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان، 2003، ص108.

³ الأصفهاني: الأغاني، ج11، ص29.

⁴ جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج5، ص519.

⁵ المرجع نفسه، ص105.

⁶ خزعل الماجدي: أديان ومعتقدات ما قبل الإسلام، (د.ط)، دار الشروق للنشر والتوزيع- عمان، الأردن، 1997، ص117.

أما قدسية اللون الأحمر فتظهر من خلال علاقته بالآلهة، فوصف "هبل" بأنه كان من <عقيق أحمر على صورة إنسان مكسور اليد اليمنى، أدركته قریش كذلك، فجعلوا له يدا من الذهب>¹، ولقبيلة "طي" أيضا صنم يقال له "الفلس" وكان < أنفا أحمر في وسط جبلهم، الذي يقال له أجا>².

وفي مجال تقديس الدم قيل: < إن دماء الملوك تشفي من عضة الكلب>³، وقسّ العرب كذلك الخمرة للونها الأحمر الذي يشبه لون الدم، فالخمر هو الشراب المفضل للآلهة حسب اعتقادهم.

كما جاء الأحمر في مواطن أخرى ليدلّ على البهجة والسرور؛ خاصة عندما يكون في الخضاب، ففي الأعياد <تخضب النساء أيديهم للدلالة على الفرح والسرور>⁴، لكنّ الخضاب لا يدل دائما على كل ما هو مبهج، فهذا "حسان بن ثابت" كان إذا خرج للحرب خضّب عنفنته وشاربه بالحناء، دون سائر لحيته > فقال له ابنه عبد الرحمان، يا أبت لما تفعل هذا؟ فقال: لأكون كأني أسد والغ في الدم >⁵، فعادة الحناء توحى بالقوة والشدة في الفتك.

وفي الشعر الجاهلي كثيرا ما نعثر على وصف للخيل باللون الأحمر، لأنه يزيدا قوة وإقداما في الحرب، مثل قول "عمر بن كلثوم":

إنا جاءت لهم تسعون ألفا
عوايس ووردلم كهيتا⁶

أورد "ابن سيرين" في كتابه عدة تفاسير للون الفرس < فالشهباء، امرأة متدينة >⁷ والخيل > الأشقر يدل على الحزن، وفي وجه آخر أن الأشقر نصر لأن خيل الملائكة كانت شقرا >⁸، وظهر الأحمر في اللباس عند الجاهليين، حيث > لبس العرب الألبسة الحمراء مثل المياثر الحمراء والألبسة الحمراء البحتة >⁹، وقد نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن لبس الأحمر لأنه لون الشيطان ف > الحمرة مكروهة للرجال ... وهي صالحة للنساء في

¹ ابن الكلبي: الأصنام، ص 28.

² جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج 5، ص 58.

³ الجاحظ: الحيوان، ج 2، ص 7.

⁴ جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج 5، ص 519.

⁵ الأصفهاني: الأغاني، ج 4، ص 106.

⁶ عمرو بن كلثوم: الديوان، تحقيق: إميل بديع يعقوب، مطبعة دار الكتاب العربي - بيروت، 1996، ص 29.

⁷ ابن سيرين: تفسير الأحلام الكبير، ص 135.

⁸ المرجع نفسه، ص 136.

⁹ جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج 5، ص 7.

دنياهن، وقيل إنّما تدلّ على كثرة المال مع منع حق الله منه، ولبس الملك الحمرة دليل اشتغاله باللهو واللعب، وقيل يدلّ في المرض على الموت >¹.

يحيل الأحمر إلى أحد ألوان جهنم من ذلك قولنا: "جهنم الحمراء"، كما ورد في حديث إيليس مع ربه ﴿ قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ﴾²، والأحمر يمثل لون الذهب والزعفران، فالأول للدلالة على الزينة، أما الثاني فيضمن الرائحة الطيبة مع الزينة، لذا > قيل: أهلك الناس الأحمران: الذهب والزعفران >³.

في مجال الريادة جاء اللون في المرتبة الأولى عند الجاهليين، حيث عدّ لون السيادة والفروسية، فقد اعتاد الناس لبس العمائم الحمراء، كما ضربت للناطقة في سوق عكاظ قبة حمراء من آدم.

أطلق العرب الحمرة على الأعاجم، فقالوا: > أحمر مثل النكعة أي شديد الحمرة >⁴ وكذلك اعتبر اللون الأحمر بمثابة تعويذة تحمي المولود من الشرور، فكان > من عاداتهم... تلطّخ شيء من دمها برأس المولود >⁵، وهذا عند تقديم ذبائح للآلهة، كما بلغت النار في أعين البدائيين من الغرابة حدا يجعلها لديهم > إحدى المعجزات التي تستحق أن تتخذ إليها وتعبد >⁶.

* اللون الأصفر:

عرف اللون الأصفر عند الجاهليين دلالات مختلفة، كل دلالة تتحدّد في مجال استعمال هذا اللون، فهو لون محبب في الزينة، وبالمقابل هو لون مكروه؛ لأنه يمثل المرض والذبول وجفاف النباتات مما يعني انعدام الحياة.

ارتبط الأصفر في العصر الجاهلي بلون الشمس، خصوصا أن الشمس كانت من معبوداتهم ومقدسة لديهم، وبما أن الشمس هي مصدر الحرارة الملتهبة، فكان الإنسان لا يكاد يميّز بينها وبين لون النار، ونتيجة لهذا ربط العرب بين لون الشمس وبين لون النار وهو أقرب للأحمر >⁷.

¹ ابن سيرين: تفسير الأحلام الكبير، ص108.

² سورة الكهف، الآية 12.

³ الجاحظ: الحيوان، ج3، ص249.

⁴ أبي حنيفة أحمد بن داود الدينوري: كتاب النبات، حققه وشرحه وقدم له: برنهار دلقيين، (دط)، دار فرانشرتاينزيقيسيان، 1974، ص176.

⁵ فضل بن عمار العمري: الدم المقدس عند العرب، ص61.

⁶ سعد الكموني: الطلل في النص العربي دراسة في الظاهرة الطللية مظهر للرؤية العربية، ط1، دار المنتخب المغربي- بيروت، لبنان، 1999، ص14.

⁷ ينظر: أمل أبو عون: اللون وأبعاده في الشعر، ص25.

وقد أعجب العربي كثيرا باللون الأصفر، خصوصا عندما يتعلق الأمر بكل ما هو مبهج في الحياة، حيث استعملوه في الزينة، فكانت >النسوة تظهر بعصائب لونها مثل لون الزعفران، حتى قيل إن أكثر العصبات التي تترين بها النساء عصائب مصبوغة بالزعفران<¹.

أما في مجال آخر فقد كان ارتداء الأصفر لا ينبئ بالخير بل بالشر، وذلك لأن العرب في بعض الأحيان يلبسون > الملابس الحمر أو الصفر المعصفرة، حين يريدون إظهار أنهم في سورة الغضب <².

لأن الأصفر رمز للذبول والمرض فقد فسّر "ابن سيرين" دلالة هذا اللون لمن رآه في المنام فقال: > الصفرة في اللحية دليل على الفقر والقلّة <³، وكذلك لم يستحسن ظهورها في اللباس إلا في بعض الأشياء، > فالصفرة في الثياب مرض وضعف ... إلا في الديباج والخز والحريز <⁴، أما في القرآن الكريم فقد ورد في مواضع متعددة تختلف دلالاته بحسب السياق الذي ورد فيه، من ذلك قوله تعالى: ﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض ثم يُخرج به زراعا مختلفا ألوانه، ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يجعله حطاما إن في ذلك لذكرى لأولى الألباب ﴾⁵. وقد ورد ذكره بمعنى المرض وانتهاء الحياة ومثلها نجد في شعر "زهير بن أبي سلمى"؛ حيث يقول:

فبيدوه بضربة أو يشكه - ينافدو تصفرو منه الأنامل⁶

ومن إحياءات اللون الأصفر أنه لون للغش والخداع والخيانة. من ذلك تحول اليهود إلى سمك لونه أصفر⁷، وهذا للدلالة على مكروهم وخبثهم.

ونشير إلى تشاؤم العرب من اللون الأصفر أيضا، لأنه لون أعدائهم، فقد أطلقوا على الرومان اسم "بني الأصفر" وذلك لما كانوا عليه من لون البشرة، وكذا لأنهم تمثلوا فيهم الشر واللؤم، فأبغضوا الأصفر وكرهوه لأنه لون العدو.

¹ أحمد مختار عمر: اللغة واللون، ص 217.

² ابتسام مرهون الصفار: جماليات التشكيل اللوني في القرآن الكريم، ص 326.

³ ابن سيرين: تفسير الأحلام الكبير، ص 66.

⁴ المرجع نفسه، ص 108.

⁵ سورة الزمر، الآيتين 21، 22.

⁶ زهير بن أبي سلمى: الديوان، ص 99.

⁷ ينظر: ألف ليلة وليلة، ج 1، ص 41.

* اللون الأخضر:

انطبع الأخضر في فكر العربي ليوحي بدلالات الخصب والنماء، والحياة والخضرة من نباتات وغيرها، وهذه الدلالات تتفق مع ما جاء عند مختلف الشعوب.

ووجه الاختلاف في النظر إلى هذا اللون، أنه يكتسب خصوصية لدى العربي، هذه الخصوصية أخذها من علاقته < بالوشم والكحل >¹، فالوشم عادة يكون للمرأة فهو زينة، ولكنّ العرب لم ينظروا إليه من هذا المنظر، لأنّ الوشم هو < أن يغرز ظهر كفّ المرأة ومعصماها بإبرة، ثم يحشى بالكحل أو النؤور، فيخضّر >²، في حين أن وقوف الشاعر على الأطلال هو ما جعله يستحضر الوشم واخضاره ليخلق < حالة من الحياة الدائمة أو المستمرة عبر قنوات الزمن، فكأنّ الوشم رقية سحرية تقصي الموت، وتساعد على تجدد الحياة >³، ومن بين الأمثلة الشعرية التي نسوقها في هذا الشأن قول "طرفة بن العبد":

لخولة أطلال بريقة ثمهدت لوح
كباقي الوشم في ظاهر اليد⁴

قُرنت صورة المرأة بالوشم، لأنّ المرأة تمثّل الخصوبة والحياة عن طريق الإنجاب، والوشم على يدي هذه المرأة رمز العربي الذي يحاول أن يقول عن طريقه < إنّ الوشم في حقيقته هروب من الموت إلى الحياة >⁵، فالوشم ووقوف الشاعر على الأطلال البالية التي تمثّل مظهرا من مظاهر الفناء والموت، واستحضاره للوشم الأخضر هو بمثابة تجديد وبعث لهذه الحياة.

أمّا الكحل فاستعمل منذ القديم عند الجاهليين، ولا يزال إلى يومنا هذا، والحديث عن الكحل يقودنا إلى ذكر حادثة "اليمامة" مع قومها الذين حذرتهم فلم يصتقوا، فقد روي عنها أنها كانت تبصر الشيء من مسيرة ثلاثة أيام، وعندما اجتاحتهم جيش "حسان" وأهلكهم، أخذ اليمامة وقام بشقّ عينيها فإذا هي عروق سود من الإثمد، والجاهليون كثيرا ما نراهم يهتمون بذكر المرأة المكتحلة بالإثمد، لما يمنحها الكحل من قوة سحرية وجمالية⁶.

¹ أمل أبو عون: اللون وأبعاده في الشعر، ص45.

² فضل بن عمار العمري: الدم المقدس عند العرب، ص96.

³ أمل أبو عون: اللون وأبعاده في الشعر، ص45.

⁴ طرفة بي العبد: الديوان، اعتق به: عبد الرحمان المصطاوي، ط1، دار المعرفة-بيروت، لبنان، 2003، ص25.

⁵ فضل بن عمار العمري: الدم المقدس عند العرب، ص97.

⁶ ينظر: إبراهيم شمس الدين: قصص العرب * موسوعة تراثية لقصص ونوادير وطرائف العرب في العصر الجاهلي والاسلامي، ط1، دار الكتب العلمية- بيروت، لبنان، 1999، ج4، ص281.

ولعلّ عيش الجاهلي في صحراء قاحلة تكاد تنعدم فيها الحياة، جعله يتشوق لرؤية كلّ ماهو أخضر متجدّد، لذا نجده يربط بين <الأخضر ونزول الماء من السماء، واكتساء الأرض بالخضرة والنبت الذي فيه رزق للإنسان ومواشيه، ومن ثمّة انبعاث الخير من هذه الخضرة >¹، إضافة إلى هذا نجد ما علق في ذهن العربي من أساطير قديمة مثل أسطورة "أدونيس" الذي مثّلت الخصب والنماء من خلال صورة الموت والانبعاث.

ونجد في قصص العرب الذي تحيلنا على البعث والاختراع، قصة سيدنا الخضر الذي يوحى اسمه بكل ما هو أخضر؛ حيث وصف <بأنه يرى جالساً على طنفسة خضراء على وجه الماء متشاحاً بثوب أخضر، ينبت العشب تحت قدميه>²، كما قيل عنه أنه حيث حلّ أخضرت الدنيا من ورائه.

فسوّ "ابن سيرين" رؤية الأخضر في المنام فقال: < إن الحمامة هي امرأة سالحة محبوبة... وأفضل الحمام الأخضر>³، كما أنّ البغلة < الخضراء سالحة وتكون طويلة العمر>⁴، وأكدّ هذا ما جاء في القرآن الكريم من ذكر لباس أهل الجنة ونعيمهم لقوله تعالى: ﴿يلبسون ثياباً خضراً من سندس واستبرق﴾⁵، للدلالة على حال المسلمين في الجنة، وهذا ما جاء في التفسير أنّ من < رأى على الميت ثياباً خضراً ذلّ... على حسن حال الميت في الآخرة >⁶.

كما فسوّ "ابن سيرين" اللباس الأخضر بأنّه < قوة ودين وزيادة عبادة للأحياء، وللأموات حسن حال عند الله تعالى>⁷، ومنه ورد في ألف ليلة وليلة عن الأخضر < وفي اليوم الثاني ألبسونا خلقاً أخضر مذهبة، وأكرمونا غاية الإكرام>⁸.

عُني الجاهلي باللباس الأخضر فامتدحه واستحسنه، ومثال هذا ما قاله النابغة واصفاً الأجسام والثياب يقول:

يصونون أجساداً قديماً نعيمها - بخالصيّة - ورد الأَخضر المناكب⁹

¹ ابتمام مرهون الصفار: جماليات التشكيل اللوني، ص 309.

² فراس السواح: لغز عشقار، ص 344.

³ ابن سيرين: تفسير الأحلام الكبير، ص 155.

⁴ المرجع نفسه، ص 136.

⁵ سورة الكهف، الآية 31.

⁶ ابن سيرين: تفسير الأحلام الكبير، ص 48.

⁷ المرجع نفسه، ص 108.

⁸ مجهول المؤلف: ألف ليلة وليلة، ج 1، ص 150.

⁹ النابغة الذبياني: الديوان، ص 47.

كما استعمل العرب اللون الأخضر للدلالة على التفاؤل والاستبشار، فأطلقوا > الخضرة على السواد¹، وهذا لأنهم لا يحبون الأسود ونسبوا إليه كل ما هو مذموم فهو رمز للموت والخراب، عكس اللون الأخضر فهو يمثل الخصب والحياة.

* اللون الأزرق:

بالرغم من قداسة اللون الأزرق في الديانات الغربية لإحالاته على الإله، إلا أن العرب لم يتفقوا معهم في دلالاته، بل كرهوا هذا اللون ونفروا منه واحتقروه فهو لون يذكرهم بأعدائهم، إضافة إلى ارتباطه بصور الغيلان، والجن ... التي تبعث فيهم الشعور بالخوف والفرع.

إضافة إلى أن اللون الأزرق هو لون أعداء العرب، وهي > صفة ينفرد بها خصوم العرب <²، لذا اعتبروه من أبغض وأبشع الألوان في نظرهم، فهو يذكرهم بملاح خصومهم الذين لا يشبهونهم، ولئن تعودت عين العربي على رؤية العين الكحلاء فقط، فقد وصفوا عيون > الغرباء بالزرقة <³، فهم لا يتقاعلون برويتها لأنها تشكل دائما الخطر والخوف .
ولما كان الأزرق في نظر العرب هو لون التشلوم، فقد مثل دورا مهما في تدعيم العادات والتقاليد التعسفية الظالمة التي مارسوها، منها وأد البنات في الجاهلية ومن أسباب الواد ظهور اللون الأزرق الذي عدّ نقيصة فتشاءموا من > البنت الزرقاء، أو الشيماء، أو الكسحاء، فكانوا يئدون من البنات من كانت على هذه الصفة <⁴.

بالرغم من عدم تفاؤل العرب باللون الأزرق، إلا أنه استخدم في مجال الوصف، فقيل: >كانت اليمامة زرقاء، وكانت الزباء زرقاء، وكانت البسوس زرقاء <⁵، فهذه النسوة اجتمعت لصفة لون عيونها؛ حيث كانت تلك الزرقة في اعتقاد العرب سببا في حدوث العديد من المصائب والفتن والحروب، مثل "البسوس" في حرب بكر وثعلب.

¹ ابن منظور: لسان العرب، مادة (خضر)، ج4، ص117.

² ابتسام مرهون الصفار: جماليات التشكيل اللوني، ص350.

³ ليلا قاسي حاجي أبادي ومهدي ممتحن: الجمال اللوني من خلال التنوع الدلالي، الموقع الإلكتروني: <http://www.sid.ir>.

⁴ إبراهيم شمس الدين: قصص العرب، ج4، ص280.

⁵ جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج5، ص59.

وود في كتاب "تفسير الأحلام" الذي لم يخرج في تفسيراته للأزرق عمّا عهده العرب حيث جاءت الزرقة بمعنى > الهم والغم <¹.

من خلال تتبعنا لكيفية ظهور الألوان عند الجاهليين، وجدنا أنّها ارتبطت بطبيعة حياتهم، فضمنوها أفكارهم ومعتقداتهم، وإن اختلفت في بعض جوانبها عن بقية الشعوب مثل ما نجده بالنسبة للون الأزرق مثلاً، لكن بعضها جاء موافقاً للدلالات السائدة كاللونين الأسود والأبيض، فقد رمزوا بهم للموت والحياة، إلا أنّ هذا لا ينفي وجود خصوصية عربية في النظر للألوان كاقتران الأخضر بالوشم في العرف الجاهلي الذي جعل منه لون البعث الحياة من جديد.

¹ ابن سيرين: تفسير الأحلام الكبير، ص108.

الفصل الثاني

1- مدخل إلى الشاعر الغراب:

أطلقت كلمة الأغرابة على طائفة من الشعراء، كان لهم وضع خاص في مجتمعاتهم، وهذا الوضع جاء بسبب لون بشرتهم المتمثل في اللون الأسود، فالعربي وبالرغم من كونه يعيش في صحراء قاحلة إلا أنه كان مولعا بالألوان، ويظهر هذا جليا في توظيف الشاعر للون؛ حيث أولاه عناية كبيرة، فعكس من خلاله نظرة مجتمعه، فهو مجتمع محب للأبيض كاره للأسود.

أغرابة العرب هم أولئك > الشعراء الذين تسرب إليهم السواد من أمهاتهم، والذين في الوقت نفسه لم يعترف بهم أبائهم العرب، أو اعترفوا بهم على ضيق منهم <¹، وقد ذهب ابن منظور " إلى أن > أغرابة العرب سودانهم <²، وجاء في "تاريخ العروس" للزبيدي" قال: > وكلهم سرى إليهم السواد من أمهاتهم <³، وبالتالي نجد أن هؤلاء الشعراء قد اشتهروا في صفة اللون الذي ورثوه عن أمهاتهم الحبشيات فسموا "الهناء"؛ لأن الدم الذي يجري في عروقهم غير عربي إنما هو دم مختلط غير صاف، ولهذا > عندهم البعض أسوأ الهناء حظا، وأوضعهم منزلة اجتماعية كان هؤلاء الذين سرى إليهم من أمهاتهم <⁴.

من هؤلاء الشعراء الأغرابة الذين اصطبغوا باللون الأسود نجد: عنتره العبسي، السليك بن السليكة، والشنفرى، حاجز بن عوف وغيرهم كثير، وقد جاءت تسمية الأغرابة تشبيها لهم > بهذا الطائر البغيض المشؤوم في لونه الأسود <⁵، لأنهم كانوا > ييغضون اللون الأسود بقد ما يحبون اللون الأبيض، فقد وصفوا كل شيء ممدوح عندهم ماديا كان أو معنويا بالبياض، فقد كان مما يمدح به الرجل أنه ابن البيضاء؛ بل كانوا يفخرون بأن سباياهم من النساء البيض <⁶، ومن بين الأمثلة الشعرية على استحسان البياض في عرف الإنسان الجاهلي ما قاله "امرؤ القيس" مبديا إعجابه ببياض النسوة:

حوراء تطل بالعبر جلودها بيض الوجوه فواعم الأجسام⁷
أما ما قيل في ذمهم للسواد، ما جاء في شعر "النابغة" يذم امرأة سوداء فقال:

¹ عبده بدوي: الشعراء السود وخصائصهم في الشعر العربي، (د.ط.)، دارقباة للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة، 2001، ص 23.

² ابن منظور: لسان العرب، مادة (غرب)، ج 36، ص 34.

³ الزبيدي: تاج العروس، مادة (غرب)، ج 3، ص 471.

⁴ يوسف خليف: الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ط 3، دار المعارف - القاهرة، (د.ت.)، ص 110، 111.

⁵ المرجع نفسه، ص 111.

⁶ يوسف خليف: الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص 111.

⁷ امرؤ القيس: الديوان، ص 153.

تجيد عن ملق سود لمأفله

مشي الإماماء الغوادي تح مل الحزما¹

لا تخرج دلالات اللون الأسود عن الدلالات السلبية؛ فهو لون الشؤم والتطير وكل ما هو قبيح، ولهذا كره العرب هذا اللون، واتسمت نظرتهم لأصحاب البشرة السوداء بالدونية والوضاعة حتى من أقرب الناس إليهم، فهم لم يلقوا ترحيباً منهم، لأن هؤلاء السود <سببة يعر بهم أبأؤهم، ومرد ذلك من شك إلى ظاهرة اللون>²، ولعل لون بشرتهم هو ما جعلهم أكثر الناس عرضة للعبودية، حيث استعبد من > كانت أمه سوداء، وإن كان أبوه من الأشراف، فتعصب العرب للنسب الصريح، واللون الأبيض جعلهم يسترقون كل أسود، ويلقبونه بالغراب>³.

العرف الاجتماعي يرفض انتماء هؤلاء السود إلى المجتمع كأفراد عاديين، لأن لون بشرتهم لا يصلح إلا ليكون لون العبد الوضيع.

تركت نظرة الازدراء للون الأسود أثراً عميقاً في نفسيات الشعراء الأغرابة وخلفت أثراً كبيراً على الصعيد الاجتماعي والنفسي على الخصوص، فالشعراء الأغرابة منذ أن فتحوا أعينهم وهاجس اللون يطاردتهم، فعاشوا حياتهم مهمشين تلاحقهم نظرات الاحتقار والازدراء، فتعرضوا لشتى أنواع الظلم والقهر، وقد نال بعضهم منزلة اجتماعية وضيعة كـ "عنترة بن شداد" الذي عاش معظم حياته عبداً > يحسن الحلب والصر<⁴، والبعض الآخر اضطرت الظروف القاسية إلى التمرد والتصعلك والخروج عن القبيلة، فاختار الصحراء سكناً والوحوش أنيساً، وفضلهم على أبناء جنسه، الذين احتقروه بسبب لون بشرته والتي لم يكن مخييراً في اختيارها.

لقد عاش الشاعر الأسود تجربة مريرة ذاق من خلالها كل أنواع اللّ والهوان بسبب لون بشرته، فارتسمت في نفسه لوحة من الحزن والقلق والاضطراب والخوف من المستقبل، لأن عقدة اللون ظلّت حاضرة في كل الأوقات لتحول بينه وبين قومه، لهذا نجدهم في أغلب مواقفهم يحاولون تبريرها وتجاوزها، وخير مثال على ذلك الثورة التي قام بها "عنترة" في سبيل استرجاع حريته وكسر قيود الذل والعبودية التي فرضت عليه، فانقلبت حياته بعد اعتراف

¹ النابغة الذبياني: الديوان، ص 130.

² عبيد بدوي: الشعراء السود وخصائصهم في الشعر العربي، ص 23.

³ عبد الحلیم حفي: شعر الصعاليك منهجية وخصائصه، (د.ط.)، الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة، (د.ت.)، ص 388.

⁴ الأصفهاني: الأغاني، ج 8، ص 196.

أبيه به إلى الأحسن، وقد كانت شجاعته وفروسيته من الأسباب التي أدت إلى انتقاله من دائرة العبودية إلى دائرة الإنسانية؛ عن طريق تحقيق ذاته وفرض وجوده.

لعل ما توصل إليه "عنتره" كان نتيجة إحساسه بالضعة والهوان وهو ما نعطيه تفسير "أدلى" الذي ذهب إلى أن < النبوغ مدفوع بالشعور بالدونية>¹، إلا أن "عنتره" رغم جهوده المتواصلة وسعيه لنيل مكانته فإنه لم يتمكن من تجاوز عقدة اللون، ولم تجده فروسيته وانتصاراته، فقد ظل في نظمه عبدا لم يستطع أن ينظر إليه على أنه سيد لا يختلف عن بقية السادة؛ لأن لون بشرته < لا يصلح لأن يكون لون سيد من أشرف القوم، بل لون العبد الوضيع >².

ظل اللون منغصاً في حياة الشاعر الأسود حتى وهو في قمة انتصاراته؛ فقبيلته التي دافع عنها وحماها أنكرت عليه في إحدى المرات أن يحوَّعبد وضيع كعنتره هزيمتها إلى نصر، وعندما حقق النصر قال سيد عبس "قيس بن زهير": < والله ما حمى الناس إلا ابن السوداء>³، ومن هنا أبغاه حاجز اللون بعيداً رغم القرب إلى القوم، ولكنه لم يرضخ لواقعه ولم يستسلم، بل أعطاه هذا اللون نوعاً من التحدي في مواجهة المجتمع والحياة من حوله، وما كفاحه ونضاله إلا دافعين من دوافعه < في محاولة الإغلاء النفسي وتعويضاً عما كان يعو به عن دناءة النسب وسواد البشرة >⁴.

إن ما فعله "عنتره" مثلاً في محاولة منه لاسترجاع مكانته ونيل حريته لم يكن أقل شأنًا مما فعلته طائفة من الشعراء الصعاليك الذين رفضوا الخضوع لقانون القبيلة والتسليم بواقعها، فقد > ثاروا على مجتمعهم مدفوعين بعاملين لا عامل واحد: عامل التمييز اللوني، وعامل الظلم الاجتماعي⁵، فخرجوا ساخطين ناقلين على ما تعرضوا له من أذية وقهر بسبب منزلتهم الاجتماعية الدنيئة ولون بشرتهم المنبوذ، ولهذا فقد دفعهم اللون إلى حالة من الاغتراب داخل مجتمعاتهم التي لم يحسوا فيها بالراحة والاطمئنان، فاخترتوا سبيل الصلابة وشقوا نهجاً خاصاً للعيش والاستمرار.

¹ مصطفى سويف: الأسس النفسية للإبداع الفني، ط4، دار المعرف - القاهرة، (د.ت)، ص172.

² ناهد الشعراوي: عناصر الإبداع في شعر عنتره، (د.ط)، دار المعرفة الجامعية - مصر، 2005، ص140.

³ الأصفهاني: الأغاني، ج8، ص169.

⁴ ناهد الشعراوي: عناصر الإبداع الفني في شعر عنتره، ص140.

⁵ عبد المعين الملوي: اللاميتان، (د.ط)، مطابع وزارة الثقافة والإرشاد القومي - دمشق، 1999، ص3.

لم يكن اختيار هؤلاء الشعراء لحياة الفياقي والتشرد سوى رد فعل عن النظرة السلبية لمجتمعاتهم، والتي انطلقت من الصفة اللونية لتحديد بحياتهم نحو الاغتراب الذاتي والتشرد والضياح، فضاقت بهم تلك النظرة الناقصة للون والمنبثقة عن تصورات واقعية ربطت بين السواد كلون وبين أشياء لا يمكن تقبلها؛ إذ يحيل السواد في مجتمعاتهم > على الكلمة القبيحة النابية أو الجارحة وكان من معاني السواد عندهم الوجد الذي يأخذ الكبد، وألقوا اسم الأسود على الخبيث من الحيات¹.

كل هذه المعاني مهتت حياة الشقاء والمعاناة والصراع؛ وجعلت من فكرة التمييز اللوني أداة لانتزاع خاصية الإنسانية من هؤلاء الشعراء الذين أنزلوا مرتبة الحيوان، وأقتت عنهم صفات الكرامة والعدالة والمساواة، ففي هذا اللون يتجلى > رفض الآخر المختلف عن الذات في اللون والثقافة، فالآخر المختلف لونا وعرقا قد يقصى... وذلك بفعل ما يمكن أن يطلق عليه العرقية أو اللونية².

تعرض الشعراء السود لمختلف أنواع التغريب والنفي بسبب لون جلدتهم، فانعكست هذه الظروف على شخصياتهم، وترجمت في أشعارهم، فلا غرابة أن يكون الشعر عندهم وسيلة > يسجلون بها مفاخراتهم، أو ينفسون بها عما تضيق به صدورهم من تلك العقد النفسية، التي تمتلئ بها أعماق نفوسهم³، لأن ما عاناه الشاعر الأسود من جراء لونه واحتقار المجتمع له قد ترك في نفسيته بصمة عميقة ف > نظرة المجتمع الجاهلي إلى اللون الأسود كانت كثيرا ما تكسر قلب الشاعر وتدمغه وتعرقل خطواته⁴.

إلا أن تأثير اللون في الشعر عامة وفي الإنسان الجاهلي خاصة؛ يتجلى أكثر وضوحا في أشعار هؤلاء الأعرية، وهذا من خلال استعمالهم للألوان في أشعارهم وتوظيفها توظيفا يتناسب ونفسياتهم؛ فيكشف عن حالة واقعه وما عاشوه في ظل مجتمعاتهم؛ إذ جسّدوا اللون بمختلف جزئياته وتفصيليه ومعانيه، واستثمروا هذه المعاني في أشعارهم وعبروا بها عن الكثير من الدلالات منها الواقعية الطبيعية التي تعتمد على التصريح، ومنها ما كان في

¹ مبروك المناعي: في إنشائية الشعر • مقاربات وقراءات، ط1، دار محمد علي للنشر - صفاقس، تونس، 2006، ص175.

² سعد فهد الدويخ: صورة الآخر في الشعر العربي، ط1، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع - إربد، الأردن، 2009، ص170.

³ يوسف خليف: الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص292.

⁴ عبده بدوي: الشعراء السود وخصائصهم في الشعر العربي، ص46.

صورة رمزية يعتمد الإيحاء والتلميح؛ حيث يتخذ الشاعر من الرموز والصور ما يُنفّس به عن هذه الرغبات، ويخلق بين الأمور أو الصور علاقات بعيدة في الوقت نفسه <¹.

إضافة إلى هذا فقد كان اللون في حد ذاته يحمل بعدا نفسيا يعكس ما يبدو في خوالج النفس من فرح وحزن وألم، كما كانت عنايتهم ببعض الألوان أكثر من عنايتهم بأخرى؛ وهذا لا شك يرجع إلى انطباع كل لون في نفسية الشاعر، وما يثير فيه من مشاعر وأحاسيس قد ترتبط بمواقف وأحداث وقعت له فوظفها في أشعاره بصورة مختلفة وبدرجات متفاوتة مثلما فعل الشعراء السود بالنسبة للونين (الأبيض والأسود)؛ وفي هذا يقول "سارتر": < ليس تطلع الشاعر الأسود إلى التعبير عن نفسه هو وحده الذي يبدو لي شعريا، بل شعرية أيضا هي طريقته الخاصة في استخدام وسائل التعبير التي بمتاوله، إن وضعه يحثه على ذلك، فحتى قبل أن يفكر بالغناء، ينكسر فيه ضوء الكلمات البيضاء ويستقطب حول نفسه ويتبدل، وهذا لا يتجلى في مكان كما يتجلى في طريقته في استخدام الطباقي (الأسود - الأبيض) الذي يرمز إلى انقسام الكون الكبير بين الليل والنهار... >².

لقد شكّل اللون هاجسا في حياة الشعراء الأغرابة وكان له دور في توجيه تأثرهم بالألوان وكيفية تقبلهم وتعاملهم معها، فهم لم يتمكنوا من تجاوز تلك العقدة ولم يستطيعوا تجاهل نظرات المجتمع إليهم رغم جهودهم المبذولة في سبيل تغيير تلك النظرة، إلا أن الشعور بالنقص ظلّ يلاحقهم، فالشاعر الأسود كان دائما < يحاول الهروب من حالة إحساسه الحاد بالواقع، واقعه النفسي الذي يمجج بألوان الصراع، وعندئذ يكون الدافع إلى الإبداع هو الرغبة في التخلص من هذا الواقع لا الهروب منه >³.

وبالرغم من عدم قدرة هؤلاء الشعراء على تخطي حاجز اللون واقعيا، إلا أنه وفي المجال الأدبي كان لهذا الفضاء أثر إيجابي في خلق نوع من التطور والتجديد، وهذا ما ذهب إليه "عبده بدوي"؛ إذ يقول: < وحاجز اللون كان وراء تحوّل هام في القصيدة العربية، وهو الانتقال من ضمير الجمع إلى ضمير المفرد، ذلك لأنه كان في حاجة إلى لفت الأنظار إليه... ما كانت القصيدة العربية في حاجة ماسة إليه كي تزهر بعد تشتت الشاعر >⁴، وبالتالي فعقدة اللون التي أحسّ بها الأغرابة كان لها الفضل في تطوير الشعر؛ حيث استطاع

¹ عز الدين إسماعيل: التفسير النفسي للأدب، ط4، مكتبة غريب - القاهرة، (د.ت)، ص40.

² عبده بدوي: الشعراء السود وخصائصهم في الشعر العربي، ص73.

³ عز الدين إسماعيل: التفسير النفسي للأدب، ص37.

⁴ عبده بدوي: الشعراء السود وخصائصهم في الشعر العربي، ص39.

هؤلاء الشعراء > الكشف عن الشاعرية الكامنة في الأشياء البسيطة والاقتراب من لغة الحكي والتنبّه إلى المرئيات التافهة الشفافية >¹.

2- دلالة الألوان عند الشعراء الأغرّبة:

لقد شكّل اللون هاجسا في حياة الشعراء الأغرّبة، وذلك بسبب عقدة النقص التي لحقتهم من لون بشرتهم الأسود، إلا أنّ هذا لم يمنعهم من أن يتعاملوا مع الألوان التي شغلت مساحة واسعة من أشعارهم؛ حيث أولوها عناية كبيرة على اعتبارها مظهرا حسيا موجودا في الطبيعة استحضرها الأغرّبة ووظفوها بدلالات واقعية كما خرجوا بها إلى دلالات أخرى عند تشخيصهم لأحاسيسهم ورؤاهم متكئين في ذلك على ما مروا به من تجارب ذاتية خاصة.

* دلالة اللون الأبيض :

تركت النظرة العنصرية للون الأبيض وتفضيله على الأسود بصمة عميقة لدى الشعراء الأغرّبة، إلا أنهم عبروا عن اللون الأبيض بقيم خيرة فساروا على > نهج الشعراء الأحرار في تصوير قيم البطولة والجلال، إن كان اللون الأبيض غايتهم الضائعة التي أفقدتهم غيابها حصانة وجودهم >²، ليقف هذا اللون في مقابل اللون الأسود الذي لم يغيب إبداعيا عن أشعارهم؛ بالرغم من أنه مثل > في حياتهم اللعنة الدائمة >³، لعنة أرقت صفاء عيشتهم وزحزحت كيانهم النفسي في مجتمع يقبل الأبيض ويرفض الأسود، ولكنها لم ترحزح إيمانهم الإبداعي بالقدرة على تخطي هذا الواقع المرّ.

اقتفى الأغرّبة أثر الجاهليين فنسجوا على منوالهم، حيث شبه كلّ شاعر > فتاته بالرئم التي هي الظبية البيضاء أو شبهها بالأيم الذي هو الحية الأبيض اللطيف، كما يشير إلى البياض والإشراق عبر استخدامه لصيغ (أغر) (إغراء) (غر)، سواء أكان ذلك في وصف إشراق طلعة ممدوح أو قوم، أم وصف العبرات، أم في وصف القصائد >⁴، ومنه استخدم الشعراء الأبيض في المدح فمدحوا > الذوات الشعرية بالبياض والإشراق حيث يدلّ العالم من

¹ عبده بدوي: الشعراء السود وخصائصهم في الشعر العربي، ص9.

² خالد زغريت: "الأساس الواقعي لجماليات اللون في شعر الأغرّبة الجاهليين"، مجلة حوليات التراث، مستغانم، الجزائر-العدد3، 2005، صص76-77.

³ عبد القادر عبد الحميد زيدان: التمرد و الغربة في الشعر الجاهلي، ط1، دار الوفاء لدينا للطباعة والنشر-الإسكندرية، 2003، ص120.

⁴ عبد القادر الغضنفر: ثراء النصّ قراءات في الشعر العباسي، ط1، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع - عمان، الأردن، 2010، ص208.

حولهم، وعدوا ذلك غاية التعالي الإنساني والقيمة العليا¹، من ذلك وصف "عنتره" الفرسان بأنهم ذوو وجوه بيضاء فشبه الواحد منهم بالطبي الناصع البياض يقول:

كم من فتى فيهم أخي ثقة
حر أغر كغرة الرئم²

حيث وصف ممدوحه بأنه حر؛ والحر هو السيد في قومه ولونه أبيض يختلف عن لون العبيد ليضفي بذلك الإشراق باستعماله للفظه (أغر)؛ لذا كان البياض مظهرا جماليا للرجل والمرأة على السواء ومنه كان > المجال الطبيعي لاستحسان البياض ورموزه شعر المدح وشعر الغزل³.

كذلك لجأ الشاعر الغراب إلى التغزل ببياض المرأة بواسطة استعمال التشبيه؛ حيث شبه المرأة بالأيم في لون بشرتها، ومشيتها المتأنية كالحية في التوائها يقول:

فإذا تم فوه فضة رملة
لبت بريق ديمة لم يهدق
إذا تحيتم سحب خلة بها
كالأيم صغدي كئيبا يرقى⁴

جاء الأبيض في مظاهر الطبيعة لاسيما السحاب، فتفاعل به الشعراء؛ لأنه عادة يكون ما طرا فيقول "تأبط شرا":

ب من نجاء اللؤلؤ بيض فورها
جبلر لصم الصخر رفيه قواقر⁵

اقترن الأبيض بوصف المرأة والرجل على حد سواء، فهذا "عنتره" يتحدث عن هيئة رجل فيصفه بالبياض وبأنه ضخم الجثة ويمتطي جوادا يقول:

فلب ليح مث لي جلك بادن
ضخم على ظهر الجواد مهلي⁶

وعمد الأعرية إلى إيراد ألوان مشتقة من البياض مثل: اللؤلؤ، والدر فهذا "عنتره" يصف العبرات التي تدرّف عند الرحيل ووقوف الشاعر على الأطلال مهموما يقول:

إذا اصاح الغراب به شجاني
رى لمعي على اللآلي⁷

¹ هلال جهاد: جماليات الشعر العربي دراسة في فلسفة الجمال في الوعي الجاهلي، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت، 2007، ص65.

² عنتره بن شداد: الديوان، (د.ط)، دار صادر - بيروت، لبنان، (د.ت)، ص63.

³ مبروك المناعي: في إنشائية الشعر العربي، صص175، 176.

⁴ تأبط شرا: الديوان، جمع وتحقيق وشرح: علي ذو الغفار شاكر، ط1، دار الغرب الإسلامي - بيروت، لبنان، 1984، ص146.

⁵ المصدر نفسه، ص95.

⁶ عنتره بن شداد: ديوان، ص60.

⁷ المصدر نفسه، ص187.

أما في وصف الحصان فكثيرا ما نجدهم يقصرون وصفه على بعض الجزئيات "فعنتره" وصف فرسه بذكره لغرته فقط والغرة في الحصان هي > بياض في الجبهة <¹، فيقول:

جى الله أهو جزاء صدق
إذا ما أوقدت نلر الحروب²

ومن سمات الجمال التي تغزل بها الشعراء بياض أسنان المحبوبة التي تزيدها جمالا ولمعانا وبريقا فيقول "تأبط شرا" واصفا:

نياط القرط - غواء الث - نايأ
ويلاء الشباب - ونعم وخيم³

لم يذكر الشاعر لفظ البياض صريحا، وإنما أشار إليه بلفظة غراء التي تعني > البياض المشرق اللامع<⁴؛ إذ ظهر اللون الأبيض في شعر الأغرابة عند وصف الأسلحة فحملوها صفات وقيم جليلة فتغنوا ببياضها ولمعانها؛ فهم لم يجدوا من يواسيهم في محنتهم سوى السيف فأكثروا من وصفه؛ حيث يقول "الشنفرى" رابطا بين لون سيفه ولون الملح الأبيض:

فإنلأ فوعوا - طرت - بليض صارم
ولت بما في ج - فورها ثم مك

حسام - كون الملح صاف - حبيبه
جزلرا كأقطاع الغدير الم - نعت⁵

وقال أيضا في الجمع بين سمر الرماح وبياض السيوف ولمعانها:

بأسمر من رماح الحط - لن
وليض صارم ذكر - يمانى

ناديت عسلا فاستجابوا بالق - نا
وبكى - أليض صارم - مينجل⁶

ذكر الشاعر الغراب اللون الأبيض عند حديثه عن لون بشرته، من ذلك وصف "الشنفرى" لوجهه بالبياض بالرغم من أن لون بشرته أسود يقول:

إنلأ ما أوم الو - ديهي وبينا
عم بياض الوجه في يمينها⁷

ولعل الشاعر جاء باللون الأبيض بدلا من اللون الأصلي وهو اللون الأسود من باب > السخرية من اهتمام السادة بمسألة اللون<⁸.

¹ أبي عبد الله بن النمري: كتاب الملمح، تحقيق: وجية أحمد السطل، (د. ط) مطبعة زيد بن ثابت - دمشق، 1976، ص 138.

² عنتره بن شداد: ديوان، ص 34.

³ تأبط شرا: الديوان، ص 202.

⁴ هلال جهاد: جماليات الشعر العربي دراسة في فلسفة الجمال في الوعي الشعري الجاهلي، ص 294.

⁵ الشنفرى: الديوان، حققه وجمعه وشرحه: إميل بديع يعقوب، ط 2، دار الكتاب العربي - بيروت، لبنان، 1996، ص 36.

⁶ عنتره بن شداد: الديوان، ص 34.

⁷ الشنفرى: الديوان، ص 41.

⁸ عبده بدوي: الشعراء السود وخصائصهم في الشعر، ص 29.

مثل الأعرية باللون الأبيض الشيب، فكشفوا من خلاله نظرتهم للوجود وما يعتمل في نفوسهم، فهذا "عنتره" يتحدث عن الشيب السابق لأوانه الذي يعلو رأس الصغير قبل أن يبلغ، وهذا الشيب لا يُعدّ حالة طبيعية نتيجة الكبر، بل هو ينتج عما يتعرض له الإنسان في حياته من مصائب فيؤدي ذلك إلى تغير لون شعره يقول:

تلك الليالي لم يغير حديتها
بوليد - قوم شاب قلى المحمل¹

ظهر الشيب كذلك للدلالة على طول العمر "فتأبط شرا" يرثي صديقه "الشنفرى" في قصيدة فيرى أن الموت اختطفه دون أن يتمتع بالحياة حتى يطول عمره يقول:

حق يملك الشيب في الهوى عانساً
وخير لك ميسوطوزاك حاضر²

خرج الأعرية باللون الأبيض إلى دلالات أخرى فحملوه معاني البؤس والشقاء، فرسموا صوراً حية مستوحاة من الطبيعة، إلا أنها في حقيقة الأمر تعكس الحالة النفسية للشاعر وما يعانيه من التشرد والضياع، فيصف "الشنفرى" الذئب النحيلة من شدة الجوع وفي وجهها شعر أبيض؛ ولعلّ هذا هو حال الصعلوك المنتشرد يقول:

فلما لواه القوت من حيث أمه
دعاً فأجابته نظائر نحلى

مهلهلة شيب الوجوه كأنها
قداح بأيدي ياسر ينظلي³

إنّ اللون الأبيض لون النقاء والطهر والصفاء، إلا أنّ هذا اللون قد يتغير بفعل ما يعلوه من شوائب كالغبار مثلاً الذي يثار في المعارك بسبب كثرة الاشتباكات والتناحر فيقول "عنتره":

وما بعدت حق ثرخظي
غبر سنابك الخلى العتاق

وطبق كلّ ناحية غبار
وأشلى باله هاهن قاق⁴

فالغبار دليل قوة وشجاعة، فلا أحد يقتحم غبار المعركة عند اشتدادها إلا كلّ فارس مغوار:

حصاني كن لا لالم نايا
فخاض غلها وشى وبعاع⁵

وتنبه "عنتره" إلى عدّة الحرب فوصف كتيبته يوم "عراعر" بأنها شهباء لما يعكسه بياض ولمعان السلاح على المقاتلين يقول:

¹ عنتره بن شداد: الديوان، ص 202.

² تأبط شرا: الديوان، ص 84.

³ الشنفرى: الديوان، ص 64.

⁴ عنتره بن شداد: الديوان، ص 175.

⁵ المصدر نفسه، ص 171.

كثاب شهباء فوق كل كهية
لؤلؤ كظالم طائر الم تصير¹ ف

جاء اللون الأبيض في شعر الأغرابة ليعكس صورة الآخر والتي تجلت ملامحه في تحديد القيمة الاجتماعية للإنسان؛ هذه القيمة التي بقيت حلما يراود الأغرابة لأنهم لم يستطيعوا أن ينالوا تلك القيمة السيادية داخل مجتمعاتهم، فاختاروا التمرد ورفضوا الأبيض كمعيار للمفاضلة على الرغم من امتثالهم في الظاهر لسلطة القوانين الجاهلية.

* دلالة اللون الأسود:

يشغل اللون الأسود مساحة واسعة في شعر الأغرابة، إذ عبروا به عن دلالات سلبية، فهو لون الموت والفناء والخراب، وهذا ما يتوافق مع نفسية الشاعر الأسود الذي جسّد عبر هذا اللون حياته المأسوية، فمثلّ الأسود <الفراق والحزن والرحيل والموت، فبنوابه قيم القبيح والوضيع والداني والمأساوي>².

وظّف الأغرابة اللون الأسود في أشعارهم فعكسوا من خلاله حجم المعاناة التي تعرضوا لها ونقلوا لنا صورة العبد الوضع المهان الذي استغله السادة لتحقيق مصالحهم وقضاء شؤونهم وحاجاتهم، وهذه المعاملة للإنسانية تحدث عنها "السليك بن السلكة" في شعره عامة؛ وتحديدًا عند الحديث عن حالة خالاته ومعاناتهن بسبب سوادهن، والذي حزّ في نفسه أنه لا يملك وسيلة ليخلصهن من هذا العذاب، وكذلك الأمر بالنسبة للإنسانية جمعاء يقول:

يا صاحبي أن لا حي بالوادي
إلأعبيد وأمهين دواذ³

يرسم الشاعر صورة للعبد الذليل ومعاناته في ظلّ المعاملة السيئة، والبيئة التي تنعدم فيها أدنى وسائل العيش والأمان عكس الطبقة الأخرى التي تنعم بالراحة والاطمئنان، فالشاعر تضيق نفسه لما يلاقونه من الإذلال والامتهان، فبدا ثائرا ناقما على هذا الوضع من جهة، ومشفقا يائسا من تغيير وتبدل الحال إلى الأحسن، فهو عاجز لا يملك حلا ليخلص أبناء جلدته من الظلم الممارس في حقهم.

¹ عنتر بن شداد: الديوان، ص 175.

² خالد زغريت: "الأساس الواقعي لجماليات اللون"، ص 78.

³ ديوان الشنفرى ويلييه السليك وعمر بن براق، إعداد وتقديم: طلال حرب، ط 1، دار صادر - بيروت، لبنان، 1996، ص 87.

مثل الأعرية عن طريق استخدام الأسود واقع مأساتهم، فهذا "عنتره" الذي أثقلته قيود عبوديته، يتحدث عن ما تعرض له من ظلم، فهو لم ينل حقوقه ومكانته كباقي إخوته وأبناء عمومته، على الرغم مما يملكه من مؤهلات، ففروسيته وشجاعته تستحقان أن يكون سيّداً في قومه، فيحظى بالتقدير والاحترام إلا أنّ هذا لم يجده نفعا ولم يجعله ليتساوى مع الآخرين، وهذا بسبب لونه الأسود الذي اعتبره داء لا شفاء منه فهولا يملك اتجاهه دواء لكي يتخلص منه فيقول:

لئن لك مد - سودا فالمسك لوني - وما لسواد جلي من دواء¹

حاول "عنتره" إعطاء صورة مغايرة للون الأسود من خلال تجميله، فلجأ إلى الاستعانة بلون المسك الأسود، فعلى الرغم من سواده، إلا أنه لم يجعل الناس ينفرون منه، بل استحبه و تطيبوا به، فجاء المسك ليبدل على صنيعة وأخلاقه، لأنّ جوهر المسك ليس لونه بل رائحته الزكية، ولا يمكن الأخذ به دون لونه، وهذا هو حال الشاعر لا يستطيع أن يتخلص من سواد جلده مهما حاول ذلك لأنّ سواده لا يملك دواء.

في مواطن أخرى كان الأسود مدعاة للذم، فكان > المجال الطبيعي لاستقباح الذم شعر الهجاء²، فهذا "عنتره" يصف وجوه خصومه مبينا سوداها للدلالة على خبثهم ووضاعتهم والحطّ من شأنهم يقول:

ليسوا كغوايم على منهم - سود الوجوه - كعفن الوم³

فالشاعر يفتخر بقومه ويهجو أعداءه، فاختر الأسود للتعبير عن الحقارة والضعة؛ حيث شبه وجوههم السوداء بالقذور التي توضع على النار فيصير لونها أسودا بفعل الدخان.

كره > الناس الغراب وضربوا بشؤمه الأمثال⁴، فتطيروا منه لأنه ينذر بالفراق ورحيل الأحبة، فأكثر الأعرية من استحضاره، خصوصا بعد الرحيل وبقاء الديار خاوية، فيحل بها هذا الطائر الذي تثير رؤيته الذكريات والأحزان في النفس، يقول "عنتره":

ظ عن الذ - من فرقهم توقع - وجى منهم الغوايب الأبع⁵

¹ عنتره بن شداد: الديوان، ص 88.

² مبروك المناعي: في إنشائية الشعر العربي، ص 175، 176.

³ عنتره بن شداد: الديوان، ص 63.

⁴ جليل محمد حسن: قراءات نصية في الشعر الجاهلي، ط 1، دار جريب للنشر والتوزيع - عمان، الأردن، 2012، ص 108.

⁵ عنتره بن شداد: الديوان، ص 48.

قال أيضا مخاطبا "عبلة" يشكولها ألم الفراق وصوت الغراب الذي يؤرق ليله ويزيد من همومه يقول:

يعابلي كم يشجى فؤادي باللوى ويروء في صوت الغراب الأسود¹

إذا كانت لوحة الأطلال لا تخلو من ذكر الحيوانات كالظباء والغراب، فقد أكثر الجاهليون من استحضارهما، ومنه كانت الطبيعة حاضرة بقوة في شعر الأغرابة الصعاليك الذي استمدوا منها مختلف الدلالات، فتجاوبوا معها وانسجموا > فتمثلوا ودلّوا على توحدهم مع الطبيعة في تجاربهم الحياتية متمثلين بحيواناتها²، "فتأبط شرا" يشبه إقدام وشجاعة صاحبه بأكثر الحيوانات شدة وعنفا، فهو كالليث الضاري في انقضاضه على فريسته وكالسمع الأزلّ حين يغزو أعداءه فيقول:

غيت مزن عامر جين بيدي - فإذا يطول فيث لي

صميلي في الحي أحرى عرقي - وأنا يغزو فسمع رألي³

حمل الأغرابة الأسود معاني القوة والشراسة، فاستمدوا تشبيهاتهم من صميم البيئة التي عايشوها، فنقلوا صورا حية عنها، ومن أبشع المناظر التي لعب الخيال فيها دورا هاما مظهرها الذئب الذي أسقطه "الشنفري" على نفسه حين شبه نفسه بالذئب فيقول مفتخرا بشجاعته:

أنا السمع* الألي لأبالي - ولو صبيغت سناجيب** العقاب⁴

خرج الأغرابة باللون الأسود من المساوية إلى تضمينه أشياء أخرى، فتنبرز في مقدمتها المرأة التي أولوها عناية خاصة من خلال وصف لسماتها الجمالية حيث جعل "عننرة" ظلمة الليل الحالكة مستمدة من شعر محبوبته، ولعل هذه هي الدلالات الإيجابية للأسود تظهر عند التغزل بالمرأة فقال:

خطف الظلم - كسارق من شعرها - فك أفا قن الدج بيديا⁵

في لوحة أخرى امتدح "عننرة" جمال المرأة وبهاءها وحصرها في سواد شعرها وعيونها الحوراء يقول:

منزلي - قطع البنور بها - مبر - قعات يظلمة الشعر

¹ عننرة بن شداد: الديوان، ص 136.

² خالد زغريرت: "الأساس الواقعي لجماليات اللون في شعر الأغرابة"، ص 78.

³ تأبط شرا: الديوان، ص 86.

⁴ الشنفري: الديوان، ص 30.

* السمع: الذئب. ** سناجيب: أعلى الجبل.

⁵ عننرة بن شداد: الديوان، ص 113.

صادت ،فؤادي مهن جارية
مكحولة الم ،قطن بالحر¹

شبه الشاعر خروج النساء من بيوتهن بالبذور في الإشراق، كما جعل سواد شعورهن يشبه ظلمة الليل، لكن ما ترك أثرا عميقا في نفس الشاعر هو رؤيته للعيون المحكولة ووصفها بالحرور والحرارة هي التي > يشتد بياض العيون، وسواد سوادها²، فأعطى ذلك جمالية خاصة لهذه المرأة وزاد في حسننها.

تجلى الأسود في شعر الأعرية على أنه الموت والهلاك فوصفت خيل الحروب بأنها سواد الوجه وهذه الصفة تنطبق على الحرب لما تخففه من الشر والخراب يقول "عنترة":

والخيل سود الوجوه كالحة
تقوض جراح الهلاك والخطر³

فضلا عن أن الخيل ذات وجه أسود، فقد لجأ الشاعر لتثبيت الصورة المخيفة في النفوس وبعث الهلع بإضافة كلمة (حالك) لتكثيف الصورة، والهدف هو التأكيد على الدلالات السلبية للأسود بمختلف درجاته، وفي هذا الصدد كانت العرب تقول > أسود حالك أو حانك وهو أشد سوادا من حنك الغراب ومن حلكه⁴، فأعطى السياق عمقا وجمالا وتكثيفا.

في صورة أخرى من صور الحرب، ينفي "عنترة" عن نفسه الجبن واللهو والتمتع بالملذات، عكس ما يفعله غيره، بل إنه فارس في ميدان الحروب، لأنها شغله الشاغل فقط فيقول:

في الخيل والخافقات السود لي شفي
ليس الصباية والصبياء من شفي⁵

طالما ربط الأعرية بين اللون الأسود والظلام، مبرزين في ذلك شجاعتهم واقتحامهم للأهوال والمخاطر، فهذا "عنترة" يصف إحدى غاراته فاختار أن يكون وقتها الليل:

لقد هممت ببطرة
في ليلة
سوداء حالك ككون الأدم^{6*}

من هنا كان الليل فرصة سانحة للانقضاض على العدو حيث اعتاد الجاهليون المباغته ليلا حتى تتسنى لهم فرصة النيل من العدو، فيظفروا بالنصر، لأن القوم نيام غير مستعدين لملاقاتهم.

¹ عنترة بن شداد: الديوان ، ص156.

² منتصر عبد القادر الغضنفر: ثراء النص، ص24.

³ عنترة بن شداد: الديوان، ص157.

⁴ النمري: الملمع، ص60.

⁵ عنترة بن شداد: الديوان، ص196.

⁶ عنترة بن شداد: الديوان، (د.ط.)، دار الكتب العلمية-بيروت، لبنان، 1995، ص126.

* الأدم: نوع من الحيات السوداء .

عبر الأعرية باللون الأسود عن واقع قيمتهم الاجتماعية؛ وهذا الواقع مثلته النظرة الدونية للرجل الأسود المذموم لونا، وهذا ما عكسه الغراب في شعره رافضا تلك العنصرية في اللون، فحاول جاهدا تجاهلها لأنها لا تعدّ مقياسا للحكم والمفاضلة، بل المفاضلة تمكن في جلاء الأفعال لا في سواد الجلد، فيقول "السليك":

هزرتني لمأمة إذوك بي رقة وفم ا به نغم وجد أسود

أعطني النفس إذا الشعاع تحلت ما لي طلعن والفرائض تعد¹

نغم الشاعر على هذه المرأة التي هزئت منه بسبب لونه وفقره، بينما كان الأجدر بها ألا تعير انتباها لمظهره الخارجي، بل أن تركز اهتمامها على أفعاله وإنجازاته، ولعل هذه النظرة هي التي جعلت شعر الأعرية يدور حول محورين > محور يجمع بين الفقر والعوز والحرمان، ومحور يجمع بين عذاب العبودية لاختلاف اللون وهوان المنزلة الاجتماعية <². ولعل "عنتره" كان أكثر الأعرية الذين بدلوا جهدا كبيرا في سبيل تغيير أفكار المجتمع اتجاه هذا اللون، فانبرى للدفاع عنه، فهو في نظره يمثل القوة والشجاعة التي لم يحض بها أعداؤه فيقول:

لئن يعيبوا سوادي فهو لي نسب يوم اللؤل إذا ما فاتني للنسب³

أبدى "عنتره" تعجبه ممن ينظر إليه ويعيره بسواد خلقتة بينما يتغاضى عن بياض خلقة وأفعاله فيقول:

تغيرني العنا بسوادي وبيض خصائلي تمحو السود⁴

إن موقف "عنتره" هذا يعود إلى نظرة العربي للأسود؛ لأذ يعبّر عن كلّ الخصائص والخصال السيئة، فهو لون الخبث والدونية؛ وهذا ما ولّد لدى الشاعر الأسود الشعور بالنقص، فكان كثيرا ما يعطي تبرير الطبيعة الأسود، وتعويض ذلك بالبياض الذي يكون فعلا حميدا فيقول "عنتره":

إن كان لوني أسودا فخصائلي يبيض ومن يحيى يستزل القطر⁵

¹ ديوان الشنفرى وويليه السليك وعمر بن براق، ص 89.

² عبد القادر عبد الحميد الزيدان: التمرد والغربة في الشعر الجاهلي، ص 113.

³ عنتره بن شداد: الديوان، ص 92.

⁴ المصدر نفسه، ص 124.

⁵ المصدر نفسه، ص 155.

لقد أكثر الأعرية من ذكر المقابلة والتضاد بين اللونين الأبيض والأسود، فهم يعترفون بسواد الجلد، ويعتزون ببياض الفعال والأخلاق لأن البيئة الجاهلية اعتزت بالبياض وألغت السواد، فاحتاج هذا الأخير الدفاع عنه و > تقديم الأدلة على إيجابيته وتساويه باللون الأبيض، ومن هنا جاء دفاع الشاعر عنه وتقديمه من خلال تجاهل الناحية الشكلية فيه، وتنمية دلالات معنوية مستمدة من حقائق وقرائن يثبتها الواقع <¹، ونلمس هذا في شعر "عنتره" في أبيات متفرقة منها:

يعيون لوني بالسواد جهالة - ولولا سواد الليل ما طع البشر²

يقول في موضع آخر:

وا - بن يعيوا سوادا قد هيد مت به - فالعريستوشب من الصلف³

فالشاعر يقرن الظلام والبدر بالسواد، فيفخر بسواده وتفوقه، فهو يرى أن سواد بشرته لا يمثل شيئا أمام بياض فعاله، فلولا الليل لما لاح ضوء الصباح، كما أن الصُدف السود هي مصدر الدرّ المتألئ، فالشاعر لجأ إلى هذه المفارقة بين هذين اللونين فجعل الأسود يتجلى في المظهر الخارجي وربط الأبيض بالقيم المعنوية الأخلاقية.

جاء اللون الأسود للدلالة على الموت من ذلك وصف "الشنفري" لمقتل أبيه، مشبها الطعنة التي تلقاها بسم حية سوداء يقول:

فإن تطعنوا الشيخ الذي لم يوقوا - مزيته وغبت إذا لم أشهد

فطعنة - خلى منكم قد توكلها - تمعج على فطرها سم لئود⁴

ترك مقتل الأب في نفس الشاعر كثيرا من الألم والحزن والحقد والكره اتجاه قاتليه الذين كانوا سببا في تشرده وشقائه، مما جعل حياته مليئة بالمغامرات والأخطار، فجاء شعره تصويريا، من ذلك وصفه للموت في أبشع صورته التي تجلّت في منظر السباع ولونها وهي تنقض على فريستها وتنهش لحمها، فعكس بذلك حالته الشعورية، مؤكدا في نفس الوقت حتمية المصير يقول:

¹ محمد بن زاوي: الشخصية في الشعر الجاهلي، رسالة دكتوراه غير مطبوعة، إشراف: العلمي راوي، جامعة منتوري- قسنطينة، 2006، ص 76، 75.

² عنتره بن شداد: الديوان، ص 172.

³ المصدر نفسه، ص ن.

⁴ الشنفري: الديوان، ص 45.

وتجـر مجيـه * لها
سود سجاليل *** كئن
لحيـيـ إلى أجر حواشب **
جوهنن ثياب راهب
مؤ عن جد المرعوت
ع القنن تطلق المـ سناهب¹

جاء في موضع آخر يؤكد الموت فضاء لا يمكن الفر منه، فكل امرئ لا بد أن يوارى يوما تحت التراب فيقول:

كـي فق عاش في غبطـة
يصير إلى الجد ثـ أشفع²

أما "تأبط شرا" فنقل عبر شعره صور السباع المفترسة وبحثها المتواصل عن جثث الموتى في القبور فيقول:

فحزمت عنهم أوتجىء منيتي
كئيا ألومـ موت لا يرـ هـها
بغواء أوعرفاء تغدوا لدفئنا
إنما ما أمكت أفيها³ واليرثنا³

استمد الأعرية دلالات اللون الأسود من صميم واقع البيئة التي عايشوها، فجاء الأسود ليحدد طبيعة العلاقة القائمة بين الشاعر الغراب ومجتمعه النابذ لهذا اللون، ومنه فقد ضمّنه الأعرية همومهم الذاتية وراؤهم وأحاسيسهم وأفكارهم فولدوا بذلك قيما جمالية سلبية تتضح من خلال تعبيرهم عن كل ما هو وضيع وقبيح ومأساوي وحقير في الذات الإنسانية.

عندما يتحدث الشاعر عن عار لونه، فهو >إنما يحكي على لسان قبيلته التي ترفض انتماءه إليها<⁴، ونظرة المجتمع في نفسها نظرة المرأة؛ لذا نجد "عنتره" كثيرا ما يخاطب "عبله" محاولا استمالتها وحثها على التروي والنظر في أفعاله لا في سواد وجهه، يقول:

لأيا على قد عاينت فعلي
ولين أبصرت مئي فـ اهجرني
ولين لك الضلال من الوشاد
ولا يحظك عر من سوادي⁵

¹ مجهول المؤلف: ديوان الهذليين، تحقيق: أحمد الزين، ط2، دار الكتب المصرية - القاهرة، 1995، ج2، ص80.

* مجرية: الذات أجر.

** حواشب: منتفخات البطن.

*** سجاليل: ضباغ.

² شعر الشنفرى الأزدي: برواية أبي فيد مؤرج بن عمرو السدوسي، تحقيق: علي ناصر غالب، مركز دراسات الخليج العربي- البصرة، 1993، ص97.

³ تأبط شرا: الديوان، ص217.

⁴ خليل محمد حسن: قراءات نصية، ص168.

⁵ عنتره بن شداد: الديوان، ص122.

* دلالة اللون الأحمر:

لم يخرج اللون الأحمر في استعمالاته لدى الأعرية عن التوظيف الواقعي، بل كان شديد الارتباط به، وخاصة في علاقته بالدم، فعبروا من خلاله عن تجاربهم الذاتية وما يعتمل في نفوسهم من رغبات وأحلام، فكان الأحمر فضاء واسعا للشاعر الأسود لإثبات وجوده، ولعلّ هذا راجع لطبيعة اللون التي تتسجم مع نفسية الشاعر الغراب المتمردة الرافضة، فهو > يثير روح الهجوم، والغزو والتأثر، ويخلق نوعا من التوتر العضلي، كما أنه مثير للمخ وله خواصه العدوانية¹.

ما يتمتع به اللون الأحمر من تأثيرات يتفق مع ما حمله الشاعر الأسود من دلالات لهذا اللون، فهو لون العداوة والشراسة، وهذا ما صوره "عنتر" في شعره حين وجه طعنة قاتلة لزوج غانية، أدخلت إلى قلبه البهجة يقول:

سبقت لحياتي بعاجل طنة
رووش اش نافدة كون لعدم²

يشير الأحمر إلى البطولة والقوة، لذا سعى الأعرية لإثبات وجودهم في مجتمع يقّس القوة، فحاولوا من خلال أشعارهم فرض ذواتهم بالتأكيد على الشجاعة وشدة البطش بالأعداء، فصوروا إراقة الدماء والهدف من ذلك هو إرهاب العدو وحمله على الاستسلام يقول "عنتر" مخاطبا سباع الفلاة:

لتعيني توي دمء أهادي
سائلين العبي والرمال³

كما نسبوا الأشياء الموجودة في الطبيعة إلى ألوانها الأصلية، فالقوس حمراء والسيف أبيض، يقول "الشنفري":

حمراء من نبع أبي ظيرة
قوس كإرطان الشجي وهتف⁴

فالقوس عادة تكون صفراء، لكن كثرة الغزوات والحروب جعلت لونها أحمر وخير تفسير للون القوس هو > أن القوس تكون صفراء في أول أمرها، فإذا ما كثر استعمالها وتعرضت للشمس والمطر والتقلبات الجوية صارت حمراء⁵، ولهذا كان اللون الأحمر في القوس يعني الموت والهلاك فيقول أيضا:

¹ شيماء شاكر محمود المشهداني: "اللون في شعر امرئ القيس"، مجلة سرمن رأى، العدد 26، تموز 2011، ج 1، ص 233.

² عنتر بن شداد: الديوان، ص 25.

³ المصدر نفسه، ص 200.

⁴ الشنفري: الديوان، ص 45.

⁵ يوسف خليف: الشعراء الصعاليك في الشعر الجاهلي، ص 201.

أركها في كي أحمر عاتير - وقد ف منهن المنى هو مقف¹

وقوله أيضا:

باضعة حمر القبيح - بعثها - ومن يغزي - ينعم موة ويشممت²

إن السمات الواقعية للون الأحمر تظهر جليا في لون الدم، لأن الدم هو لون الحرب والموت فكانت أسلحتهم كثيرا ما تتلون بدماء أعدائهم ومنه يكون الظفر والانتصار يقول "عنتره":

هزمت تميماء ثم جندلت كبشهم فعدت - وسيفي من دم القوم أحمر³

فاللون الأحمر يمثل الحرب، والحرب تبعث على الإثارة حتى قيل: > إن اللون الأحمر أعز الألوان في لعبة الحب والحرب⁴، وهذا ما نلمسه في شعر "عنتره"؛ إذ يحاول عن طريق الدم إبراز مواقفه البطولية فيصف حالته وحالة فرسه والدم يغطي جسمه حتى يكاد يختفي لون بشرته الأصلي من كثرة الدماء، فهو يقحم حصانه في حروبه فيتخضب بالدماء حتى كأنه لابس قطيفة حمراء يقول:

وكوهه على الهناء حتى - بي كالأجواني الم - جوب⁵

أصر الشاعر الأسود على إبراز أعماله البطولية المليئة بالدم وهذا ما يتلاءم ونزعة التمرد والرفض لديه، وصراعه من أجل البقاء، فكان الدم مظهرا للقوة والعزة، وهذا "عنتره" يشبه كثرة الدماء على الأرض بالوردة الحمراء يقول:

فإنا ما الأرض صارت - وردة على الدهان

والد - ما تجرى عليها - لها أحمر قلاني⁶

استهوى منظر الدماء "عنتره"، حتى اعتبره الهدية المثلى التي يمكن تقديمها "لعلة" كما أن أجمل لباس يرتديه في نظره هو اللباس الأحمر، الذي تكبده الحروب إياه يقول:

سلي - يا على قومك عني - ومن حضر الوقعة والطراد

وعلت مخضبا من دم الهادي - وكر ب الركن قد خضب الجواد⁷

¹ الشنفرى: الديوان، ص 55.

² المصدر نفسه، ص 45.

³ عنتره بن شداد: الديوان، ص 146.

⁴ خالد زغريت: "الأساس الواقعي لجماليات اللون"، ص 82.

⁵ عنتره بن شداد: الديوان، ص 34.

⁶ المصدر نفسه، ص 221، 222.

⁷ المصدر نفسه، ص 124.

لأن "عنتره" شاعر وفارس فقد وُحِدَ في شعره بين <عالم الحرب وعالم الحب>¹، فهو كثيرا ما يذكر أسلحة الحرب والدم في مواقف الغزل بقوله:

فولت حياء ثم أرخت لثامها وقد نثرتن خد ها وطب الورد

وصلت ح سلا من سواحي جفونها كسيف أبيها القاطع² رهب الحد²

بعيدا عن ميدان الحرب عدّ الأحمر في باب الغزل حسنا ووسامة، خصوصا إذا كان الموصوف به خد المرأة يقول "عنتره":

ووهف له زمل وخصر مهفهف وخذ به وود وساق حدلج³

يُعدّ الخضاب زينة المرأة، ومما يذكر في خضاب المرأة قول "عنتره":

فيها لوامع - لو شهدت رهاها لمسوت بهت خضيب وككل⁴

ربط الأغرابة بين اللون الأحمر ولون النار؛ فوصفوا إقدامهم على الحروب فيقول "تأبط شرا" واصفا أصدقاءه بأنهم شجعان وشعت لكثرة غزواتهم فشجاعتهم تظهر في توقد عيونهم بنار الإقدام وكأنها نار متأججة يقول:

مساعر - شعت كل عيونهم حريق الغضا تلى عليها شقائق⁵

أما "عنتره" فكانت ناره تعبر عن عاطفة الحب وألم الوجد نتيجة للفرق يقول:

و - كيف طيق الصرع من أجب وقد طهرمت في الهوى في طلي⁶

أشار الأغرابة في أشعارهم إلى بعض الطقوس الحربية التي يبرز فيها اللون الأحمر "فعنتره" يصف تقليدا جاهليا في الحرب يتمثل في تخضيب الفرسان للحاهم بمادة تشبه لون الزعفران وهذا بهدف بثّ الرعب والخوف في نفوس أعدائهم، ولعلّ هذا ما قام به "حسان بن ثابت" حتى يتشبه بالليث الضاري يقول "عنتره":

وملرا عني - يوم الطعان⁷ وه وقته إلي بهم بن الزعفران تصرجوا⁷

¹ خالد زغريت: "الأساس واقعي لجماليات اللون"، ص 82.

² عنتره بن شداد: الديوان، ص 61.

³ المصدر نفسه، ص 110.

⁴ المصدر نفسه، ص 60.

⁵ تأبط شرا: الديوان، ص 123.

⁶ عنتره بن شداد: الديوان، ص 165.

⁷ المصدر نفسه، ص 165.

من خلال تتبع دلالات الأحمر في شعر الأغرابة، يتضح أن هذا اللون كان من أكثر الألوان التي التزموا فيها بالتوظيف الواقعي للون، لذلك فقد ضمّنه الأغرابة مختلف رغباتهم وانفعالاتهم، فرفعوا عن طريقه تحديات لتحقيق كل ما يطمحون فيه.

* دلالة اللون الأصفر:

وظّف الأغرابة اللون الأصفر برؤى واقعية وأخرى جمالية، على اعتبار أن الأصفر من أكثر الألوان التي انطبعت في نفس الشاعر، من خلال تحققه في البيئة الصحراوية فهو لون الشمس وبهذا قد >تتّبها للأصفر قبل الأخضر والأزرق¹، ومنه فقد تعامل الأغرابة مع الأصفر بمختلف درجاته وامتزاجه بألوان أخرى، ف>داخلوا بينه وبين الأبيض بإسراف؛ يظهر ذلك عبر تركيزهم على إبراز الإشراق والإضاءة والسطوع، فكان في أغلب الأحيان يأخذ معنى الأبيض².

تجلى الأصفر في شعر الأغرابة بظهوره في مواضيع الغزل، فكانوا يمزجون بين اللونين الأبيض والأصفر لما يحملانه من النور والإشراق، فالأصفر مرتبط بالشمس، أما الأبيض فيأتي عن طريقه اللمعان والضياء، ومما ذكر في هذا ما قاله "عنتره" واصفا موكب النساء مشبها طلوعه بالشمس المشرقة، ومشيدا بجمال النسوة فهن دمي مصنوعة من لؤلؤ، فأخرج صورة متكاملة تجسّد هذين اللونين يقول:

لمن الشموس عزيزة الخلاج يط لمن بين الوشي والديساج
من كل فليقة الجمال كميّة من لؤلؤ قد صورت في عاج³

ربط الأغرابة بين الشمس والمرأة مبرزين جمالها وهذا بهدف إخراجها بمظهر الجلاء والنورانية؛ ومنه كانت للشمس مكانة خاصة لدى الشعراء، لأن >صورة الشمس مشهورة غير خفية، وهي أقوى من كل الأضواء وأقوى من كل الأشعة⁴، ومنه أيضا جاء قول "عنتره" في الشمس وكان يقصد من وراء ذلك وصف جمال المرأة يقول:

والشمس بين مضرج* وميلج** والغضن بين موشح ومقل⁵

¹ شيماء شاكر محمود المشهداني: "اللون في شعراء القيس"، ص 236.

² خالد زغريت: "الأساس الواقعي لجماليات اللون"، ص 82.

³ عنتره بن شداد: الديوان، ص 113.

⁴ محمد مرتاض: مفاهيم جمالية في الشعر • محاولة نظرية وتطبيقية، (دط)، ديوان المطبوعات الجامعية - الجزائر، 1998، ص 54.

⁵ عنتره بن شداد: الديوان، ص 137.

* مضج: المصبوغ بالدم. ** ميلج: النقي الطلق.

ظهر استعمال اللون الأصفر عند الأغرابة في ضوء البيئة، فعرضوا بذلك صورا حسية لأشياء موجودة في الواقع وهذا من خلال إدراكهم المعرفي لطبيعة اللون وخصوصياته، من ذلك أنهم نسبوا القوس إلى لونها الأصلي، فهذا "الشنفري" يولي قوسه عناية كبيرة فهي التي صاحبته في غاراته ومغامراته وكانت خير رفيق ومعين له على أعدائه يقول:

إني كما ني فقد من - ليس جازيا
بحسن ولا في قوبة - مغلل
لشاة أصحاب - فؤاد مشيع
وليض إصليت - صفراء عيطل¹

أما "تأبط شرا" فقد عرض للقوس ولونها، عندما رثى "الشنفري" ذاكرة قوسه الصفراء يقول:

يفرح عنه غمة الروع عزومه
وصفراء مرلن - وليض باثر²

حظيت القوس بمكانة رفيعة لدى الأغرابة، فهي سلاحهم الذي يردُّ عنهم الأخطار ويحمل لأعدائهم الموت، يقول "تأبط شرا":

دنو - تله حق كل قهيصه
شرب من قرح الأخادع * عصفا^{3**}

تنبه الشاعر الغراب للون الأصفر لما يحمله من خصائص تتمثل في لمعانه وضياؤه فهذا "عنتره" يقرن بين اللون الأصفر والخمر من خلال وصفه لزجاجة الخمر، فخرته لا توضع إلا في زجاجة صفراء يقول:

يزجاجة صفراء ذات لمرّة
قوت يهور في الشمال - مضدم⁴

من خلال قراءة دلالات اللون الأصفر في شعر الأغرابة، اتضح ذلك الارتباط الواقعي بالعالم الحسي الذي لم يستطيعوا الانفصال عنه، والذي كشفوا من خلاله عن رؤاهم وأحاسيسهم ويظهر هذا جليا من خلال تعاملهم مع أسلحتهم، إلا أن هذا لا يعني أنهم لم يخرجوا عن الواقع، بل كثيرا ما نجدهم يحطّون في فضاء الخيال مولدين بذلك دلالات تحمل قيما جمالية معبرة عن هذا اللون.

* دلالة اللون الأخضر:

¹الشنفري: الديوان، ص 60.

²تأبط شرا: الديوان، ص 81.

³المصدر نفسه، ص 102.

* الأخادع: الأخدعان عرقان في العنق. ** العصفرا: نبات صبغي.

⁴عنتره بن شداد: الديوان، ص 24.

كان للون الأخضر حضور ضعيف في شهر الأعرية إذا ما قارناه ببقية الألوان الأخرى، ولعلّ هذا مرتبط بجملّة من الأسباب منها موضوعية خارجية تتعلق بطبيعة البيئة الصحراوية التي يعيش فيها الشاعر؛ والتي تفنقر إلى النباتات والخضرة؛ لأنّ بيئة الشاعر صحراء قاحلة يكثر فيها القحط والجذب، أمّا العوامل الذاتية فهي تتعلق بنفسية الشاعر وما يعتمل فيها من قلق واضطراب، وهذا ما يتنافى مع طبيعة اللون الأخضر، لأنّ من خواص هذا اللون أنّه مهديّ للجهاز العصبي فيبعث على الراحة والاستقرار ومنه كان > لون الربيع والتجدّد والأمل، ويرتبط - خصوصا النافر منه - بالنماء ويرمز إلى حياة الوفرة والخير¹، هذا ما لم ينعم به الشعراء السود في ظلّ مجتمعاتهم فقد كانت حياتهم مليئة بالضغوط والضياع والهموم والأحزان.

عبر الأعرية باللون الأخضر عن حالات نادرة من الهدوء والسكينة فهذا "تأبط شرا" يتحدث عن غضن البان الأخضر يقول:

بقت لها يومان - يوم - قامة -
هفنر - غصنا من ا - لجان - أخضرا²

بما أنّ الأخضر هو لون البهجة يدعو للتفاؤل والسعادة، فقد ذكره "عنتره" حين وصف الطائر على الغصن الأخضر؛ لأنّ الخضرة تسمح الأحزان عن النفوس وتتجلي عند رؤيتها الهموم بما تثيره في النفس من مشاعر تبعث على الارتياح والهدوء والسكينة، وفي هذا الصدد يقول "عنتره":

لو كنت هني - ما ليث - ملو نا -
حسن - ا - علامت بك - الأخضر³

تفاؤل العرب بنزول الأمطار في الصحراء القاحلة؛ لأنّ نزولها يعني الارتواء، فتكتسي الأرض حلا خضراء تزيدها بهاء ونضارة يقول "عنتره":

كما الربيع - بك من - هار ه -
حلا - إذا ما - الأرض - فاح - ربيعها⁴

يقول أيضا:

كما الربيع - ربوعها - لوره -
لما سقتها - الغدايات - عهدها⁵

* دلالة اللون الأزرق:

¹ شيماء شاكر محمود المشهداني: "اللون في شعر امرئ القيس"، ص 336.

² تأبط شرا: الديوان، ص 230.

³ عنتره بن شداد: الديوان، ص 230.

⁴ المصدر نفسه، ص 169.

⁵ المصدر نفسه، ص 127.

استعمل الأغرابة اللون الأزرق في نطاق ضيق ومحدود، فلا يكاد يظهر في أشعارهم إلا في أماكن محددة كالحرب، ومنه جاء الأزرق للدلالة على الخوف والقسوة من ذلك قول العرب > أَيْابُ زُرُقٍ وَسَمُّ أَزْرُقٍ <¹، وهذه الدلالات تناولها الأغرابة في أشعارهم فجاء اللون الأزرق حاملاً لمعاني القسوة والشدة والخوف، "فعنتره" يصف رماحه المصقولة الصافية التي تبتّ الخوف في نفوس خصومه مشبّها إياها بهرير الكلاب التي تهرب خوفاً من لدغ الأفاعي يقول:

عولي زرقاً من رماح ردينة
هزير الكلاب يقيين الأفاعيا²

برز اللون الأزرق في شعر الأغرابة عبر صورة الغول، فعلى الرغم من أن الغول كائن خرافي ليس له صورة بارزة المعالم إلا أن "عنتره" في شعره حاول رسم ملامح للغول، فهو ذو ملاح مخيفة منفرّة ومرعبة فأظهره بوجه أسود، وعيون زرقاء وأظافر طويلة تشبه حدّ المنجل يقول:

بنواظر زرق ووجه
سود - سواد
وطأ فريشيهن حد المنجل³

في إشارة إلى اللون الأزرق يصف "الشنفري" سهمه فيقول:

فستبسل* ضافي القميص صمم
سود - سود
سود لاكس** ولا تمتعج⁴

كان للون الأزرق حضور ضعيف في شعر الأغرابة فحاولوا من خلاله الربط بين واقعية اللون وجماليته؛ فحمل بذلك أفكاراً وأحاسيس من صميم الواقع، كما كان للخيال دور هام في توليد دلالات مختلفة.

أدخل الأغرابة الألوان في الشعر في صميم واقع بيئتهم، فكانت لها علاقة قوية بما يدور داخل المجتمع من أفكار وعادات ومعتقدات، كما كان لواقعهم النفسي دور هام في منح دلالات لهذه الألوان بما يحمله من مشاعر وأحاسيس وأحلام؛ وهذين العاملين يظهران بوضوح من خلال استعمالهم للألوان، فقد وظّفوها بنسب متفاوتة فمالوا إلى استخدام ألوان

¹ خالد زغريت: "الأساس واقعي لجماليات اللون"، ص 86.

² عنتره بن شداد: الديوان، ص 81.

³ المصدر نفسه، ص 202.

⁴ الشنفري: الديوان، ص 40.

* مستبسل: يقبل على الحرب مستقبلاً.

** النكس: السهم الذي ينكس رأسه.

دون أخرى، ومنه فقد طغى الأسود والأبيض في شعر الأعرية فجدوا عن طريقهما التفاوت الاجتماعي بما يتخلله من صراع نفسي؛ لكون الأبيض عند الجاهلين يرمز إلى القيمة الاجتماعية، فهو لون السيد الكريم بكل ما يحمله من صفات حميدة، بينما الأسود هو لون العبد الوضيع بما يمثله من صفات ذنيئة، فكانت الألوان الأكثر حضوراً في أشعارهم هي التي تحمل معاناتهم الذاتية، أما بقية الألوان كالأخضر والأزرق فقد تعاملوا معها باقتضاب لأنها لا تتوافق وطبيعة الظروف التي عاشوها، كما أنها لا تحيل إلى صورة القلق الداخلي الذي يحياه الشاعر الأسود.

3- اللون وأثره في الصورة الشعرية:

تعدّ الصورة الشعرية عنصراً رئيسياً في تشكيل العمل الأدبي؛ فمن خلالها يمكن استيعاب مضمون العمل ومن ثمة إبراز جماليته والحكم على مستواه؛ فالصورة > تشكيل لغوي يكونها خيال الفنان من معطيات متعددة يقف العالم المحسوس في مقدمتها، فأغلب الصور مستمدة من الحواس إلى جانب ما لا يمكن إغفاله من الصور النفسية والعقلية¹؛ تصاغ من عالم الحس بالإضافة إلى العالم النفسي.

يوظف الشاعر الصورة في إبداعاته للتعبير > عن حالة أو حدث بأجزائها ومظاهرها المحسوسة، في لوحة مؤلفة من كلمات ومقطوعات وصفية في الظاهر لكنّها في التعبير الشعري توحى بأكثر من المعنى وقيمتها تتركز على طاقتها الإيجابية فهي ذات جمال ذاتي مستمد من اجتماع الخطوط والألوان والحركة ونحو ذلك من عناصر حسية²، ومنه فقد اكتسبت الصورة خصوصية في ميدان الشعر لاشتغالها على مكونات تبعث فيها الحيوية والطاقة كالخطوط والحركة والألوان، لأن > الشعر ينبت في أحضان الأشكال والألوان. فالشاعر طفل يحب الألوان، لأنه يستكشف عن طريقها الصورة، ولأنّها مثيرات حسية تجتذبه وتحدث لديه - بمشاركة العناصر الأخرى- توتراً وحركة في المشاعر، فينفذ من خلالها إلى التأثير في القارئ أو المتلقي³.

¹ علي البطل: الصورة الفنية في التراث النقدي البلاغي عند العرب، ط2، دار التنوير للنشر والتوزيع - بيروت، لبنان، 1983، ص327.

² عهود عبد الواحد العكيلي: الصورة الشعرية عند ذي الرمة، ط1، دار الصفاء للنشر والتوزيع - عمان، الأردن، 2010، ص24.

³ عبد الفتاح نافع: الشعر العباسي قضايا وظواهر، (د.ط.)، دار جرير-الأردن، 2011، ص24.

تتأتى قدرة الشاعر في تجسيد صورته بالاستعانة بالخيال، فعن طريقه يستطيع نقل الظواهر وتشخيصها بما ينطبع اتجاهها >فوظيفة المخيلة لا تعني استذكار الصورة والمحسوسات واستعادة تخيلها ولكنها تتجاوز ذلك إلى وظيفة ابتكارية متميزة¹.

ولأنّ اللون عنصر فعال في الصورة الشعرية؛ فقد اهتم الشعراء القدامى بنقل الظواهر المختلفة فلم >يغيب عن تصورهم الجانب الحسي على غيره من الجوانب، إذ ارتبط دور اللون في الصورة الشعرية عند القدماء بالشكل والهيئة الحاضرة في مجال وصف الأشياء وتجسيم المعنوي، وبث الحياة في الجوامد بطرق التشبيه والاستعارة في شكل صور بصرية²، إلا أنّ هذه الوسائل المستعملة لتجسيد الصورة الحسية لديها القدرة أيضا على نقل صور نفسية، فيتداخل >الإحساس مع كلّها هو حسي؛ حيث يُخرج الشاعر صورة فريدة متميزة عن طريق إخضاع الطبيعة لحركة النفس وحاجتها، وعندئذ يأخذ الشاعر كل الحق في أن يشكل الطبيعة ويتلاعب بمفرداتها وبصورها النافرة كيفما يشاء، وفق لتصوراته الخاصة³.

من هذا المنطلق وظّف الأغرابة اللون في صورهم الشعرية، فاستمدوا من الطبيعة الألوان واستغلّوها في تركيب صورهم وإبداع لوحاتهم، إلا أنّ تعاملهم مع الألوان لا يقف عند حدود الواقع، بل كان لخيالهم الشعري في نسج لوحات فنية؛ هذه اللوحات كثيرا ما تكون ملونة بتجاربه الذاتية بكل ما يعتمل فيها من مشاعر، وانفعالات، ومواقف واجهوها فكانت >صورهم مشحونة بتجاربه الذاتية⁴، في محاولة منهم لتسليط الضوء على حقيقة الحياة البائسة التي عايشوها، ومنه كانت قيمة الصورة تتجلى في >قدرتها على الكشف عن العالم النفسي للشاعر والمزج بين عاطفته والطبيعة⁵، ومن هنا تظهر ضرورة استثمار الألوان في الصورة الشعرية لبيان جمالها ذلك أنّ >استخدامها لم يقف عند حدود تخطيط الصورة أو إبرازها بالشكل الذي يحقق لها اللون، وإنما كان الدافع... هو جعل هذه الصورة محفوظة بإطار من الأبعاد المتحركة بذاتها، تضيء عليها الألوان ميزة ربما كانت تفتقر إليها قبلا⁶.

¹ محمد علي الكندي: الرمز والقناع في الشعر العربي الحديث، ط1، دار الكتب الجديدة المتحدة - بيروت، لبنان، 2003، ص29.

² ظاهر محمد هزاع الزواهرة: اللون ودلالته في الشعر، ص186.

³ عز الدين إسماعيل: التفسير النفسي للأدب، ص7.

⁴ عبده بدوي: الشعراء السود وخصائصهم في الشعر، ص339.

⁵ عبد الحميد هيمة: الصورة الفنية في الخطاب الشعري الجزائري، ط1، دارهومة - الجزائر، 2003، ص57.

⁶ عدنان عبيدات: "جمالية اللون في مخيلة بشار بن برد الشعرية"، مجلة مجمع اللغة العربية - دمشق، المجلد 80، ج2، ص336.

كان للوضع النفسي دور في تجسيد الصورة اللونية عند الشعراء الأعرية؛ حيث مثلوا فيها مشاعرهم المضطربة في ظل واقعهم المليء بالصراعات الداخلية أو الخارجية المتعلقة بالمجتمع، وفي ظل هذه الظروف كان الشاعر الغراب يلجأ إلى <الصورة الرمزية بتوجيه من تجربته الشعورية المضطربة التي لا يمكن التعبير عنها إلا بالصورة الرمزية دون غيرها>¹، ومنه فقد اتخذ الأعرية من الألوان سبيلاً لإبراز الصورة وبيان جملها؛ فوظفوا الألوان منفردة أو مزجوا بين لونين أو أكثر، مما أكسب لوحاتهم إحياءات ودلالات خاصة عن طريق الرمز الذي جسّد الأحوال النفسية المتوترة التي خلّفها عقدة اللون؛ التي كانت لها أثر واضح في بروز <الصورة الرمزية عند السود والسواد في المجتمع العربي تلك الصور الرمزية التي عوّت عن نفسها في أشكال ثقافية متنوعة كالأحلام، اللباس، الحيوان، الأئنة، لون البشرة...>².

نقل الأعرية العديد من الصور المليئة بالألوان؛ فرسموا بذلك لوحات عديدة نجد في مقدمتها لوحة الإنسان، سواء أعلق الأمر بالرجل أو المرأة، ومن لوحات المرأة ما قاله "عنتره" حين رسم لوحة مشرقة للمرأة، يقول:

رفعوا القباب على وجوهه - شُرقت	فمها يغربت المهد بها في الفرق
واستوكفوا ماء العيون بأعين	مكحولة بالسحر لا بالإثم
والشمس بين مضرح وهليلج	والغصن بين موشح ومقلد ³

شبه الشاعر وجوه الجوّاري في إشراقها بالفرقد، والقباب التي تسترها بالسُّها، ومما زاد في إضاءة اللوحة تأكيدَه لصفة الإشراق بذكره للشمس؛ فساعد هذا على بروز اللون الأبيض، كما أشار إلى اللون الأحمر في الخد، ومما زاد في اتساع مساحة الألوان هو ذكره للون الأسود باعتباره لون الزينة الذي يكمن في (الإثم)؛ فجاءت صورته مشكلة من مزيج الألوان يعلوها اللون الأبيض، الذي استحضره الشاعر من باب التقديس لارتباطه بنور الشمس المقدسة عند الجاهليين.

¹ محمد علي الكندي: الرمز والقناع في الشعر العربي الحديث، ط1، دار الكتب الجديدة المتحدة- بيروت، لبنان، 2003، ص29.

² ناذر كاظم: تمثيلات: الآخر. صورة السود في المتخيل العربي الوسيط، ص148.

³ عنتره بن شداد: الديوان، ص137.

أما لوحة "الشنفرى" في صاحبتة؛ فقد تجلّت في قوله:

وفت كئن البيت حوج فوقنا برحانة رحت عشاء ووطت
بويحانة من بطن حلية نورت لها أرح ما حولها غير مسنت¹

فصاحبتة طيبة الرائحة تملؤ البيت عطرا خصوصا عندما تهب الريح فيجيء نسيمها، وجاء الشاعر بالأبيض بإيراده لكلمة (نورت) المقصود بها زهر أبيض ينبعث نوره من كل جانب.

جاء اللون الأبيض في شعر الأعرية؛ فزينوا به لوحات المرأة، يقول "عنتره":

وا لعر تصلظ لكه بوق للأ في الظلام الم سسل²

شبه الشاعر انكشاف اللثام عن وجه المرأة ورؤيته لشعرها بالبرق المتلألئ في الظلام، وقد زاد الأسود في تحديد جمالية الصورة، لأن الأبيض يظهر لمعانه وإشراقه عندما يقترن بالأسود، ومزج الشاعر بين اللونين زاد في انكشاف الصورة وبروز ألوانها. أما "تأبط شرا" فقد اختار صورة تعكس حالته الشعورية إزاء الموقف الذي يكون فيه، من ذلك وصفه لسيفه المسلّط على رقاب الأعداء، والذي ضحك الموت له سرورا من كثرة ضحاياه حتى أنه لتبرق أسنانه من كثرة الضحك، يقول:

إذا هزه في عظم قرن تهلت نواجهه فواه الم ناي الضواحك³

جاء الأبيض في المدح من باب الاستحسان، كما ذكرنا سابقا، من ذلك لوحة "عنتره" في وصف "كسرى أنوشروان" يقول:

وقد خلت عليه الشمس تاجا فلا يشجعها به ظلم
جواهره النجوم وفيه بسدر أقل صفات صورته للتمام
بينو نعش لمجلسه سرير علمها والسماوات الخيام⁴

شبه الشاعر "كسرى" بالبدر الذي يطلع ليلا، وتاجه مرصع بجواهر من النجوم وزين عرش مجلسه بسبعة نجوم أخرى (بنات نعش)، وأحاط بمدوحه بهالة من التقديس، فقدم في هذه الأبيات لوحة متكاملة الأجزاء بتشبيهات مختلفة، لعب فيها اللون دورا هاما في إبراز ملامح

¹الشنفرى: الديوان، ص35.

²عنتره بن شداد: الديوان، ص156.

³تأبط شرا: الديوان، ص155.

⁴عنتره بن شداد: الديوان، ص231.

الصورة بألوانها المشعة، فأظهرها وكأنها لوحة تشكيلية رسمها الشاعر بعناية وأبدى براعة في اختيار الألوان وتنسيقها.

عمد الأعرية في أشعارهم إلى وصف الخصم بالبياض، من ذلك لوحة "عنتره" الحربية التي صور فيها كيفية فتكه بأعدائه يقول:

وبدر تركناه طريحا
شككت فؤاده لما تولى
فخر على صعيد رضاً ملقى
بصير مثقف ماضى في الفلن
كلى عليه حلة أجوان
عفير الغد مخضوب البنان¹

فخصمه أبيض كالبدر وهذا ما يؤكد أنه من أشرف القوم، فضربة "عنتره" جعلته طريحا ينزف دما، كما أن كثرة الدماء حوله جعلته يلبس ثوبا أحمر، ووجهه هو الآخر ممرغ بالتراب وراحته مخصبتين بالدماء، فشكّل "عنتره" لوحة لخصمه الصريع فجمع بين اللونين الأبيض والأحمر مبرزاً في ذلك قدرة هائلة على التصوير، مبينا في ذلك حالته الشعورية واعتزازه بذاته، لأنه تغلّب على خصمه الأبيض فقهره واستمتع بنشوة الفوز.

إن هذه اللوحات التصويرية للشعراء الأعرية أكسبت اللون الأبيض قداسة خاصة؛ لأنه مثلّ النور والإشراق، يقول "الشنفرى":

سراجين فتیان کأن وجوههم
مصاييح أو ملاء من الماء مذهب²

شبه "الشنفرى" وجوه رفاقه بالمصاييح المشرقة كلون الماء المذهب محيلاً في ذلك إلى النور المتجلي في وجوههم، وقد رسم "عنتره" لوحة أخرى للرجل في أوقات الحرب وهذا حين وصف نفسه قائلاً:

بوزت لها دهر اعلی کل حادث
ولا کحل إلا من غبار الكتائب³

فلون الكحل هنا غير عادي؛ حيث شجّب الشاعر تراكم الغبار عليه بالكحل الذي يُتزين به، وبما أن الكحل هو مصدر للزينة المثيرة للبهجة، فالشاعر بدوره أحب هذا الغبار؛ لأنه مصدر لسعادته وبهجته.

أما عن لوحة الشيب فقد ورد فيها تشبيه خاص، حين شبه "عنتره" الشيب بالصبح الذي يحمل البشرى والخير، يقول:

¹ عنتره بن شداد: الديوان، ص 233.

² الشنفرى: الديوان، ص 28.

³ عنتره بن شداد: الديوان، ص 99.

ذني لعيلة ذنب غير مغتفر
ل = 1 تلج صبح الشيب في شعري¹

لجأ الشاعر إلى تشبيه الشيب بالصبح؛ لأن "عيلة" تدم الشيب وتكرهه فبدت غير راضية عنه، ولعلّ هذا راجع إلى كون <الزمان يستنزف قوى الإنسان ويسير بخطاه المشوب بالضعف وعدم القدرة على ممارسة نشاطه في الحياة، كما كان في الماضي فيتأتى له شعور بأنّ الزمان يقوده للفناء، وما الشيب إلاّ نذير ذلك>².

أما وصف الرجل بالسواد فقد كان من باب الدم، لكن الشعراء السود مثل "عنتر" حملوا مسؤولية الدفاع عنه فرسموا له صورا مختلفة عما اعتاد عليها الناس، وهذا بهدف درء النظرة السوداوية، يقول:

لئن أك أسودا فالمسك لوني
وما لسواد جلدي من دواء
ولكن تبعد الفحشاء عني
كبعده رضاً جوا السماء³

يشبه "عنتر" سواد لونه بلون المسك فيفتخر بأخلاقه، وينفي اقتراب الفساد والفحشاء منها، مؤكداً بذلك أنّ سواد المسك لا يمنع التعطر به ولا يذهب رائحته ولا ينقص من شأنه؛ فجمع في هذه اللوحة مواجهة بين اللونين الأبيض والأسود، وهي في أصلها تتبع من إحساس الشاعر بعقدة لونه خصوصا أنّ <ذات عنتر كانت ممزقة بين هويتها العرقية واللونية والطبقية>⁴، إلا أنّ الصورة جاءت محملة بدلالات خاصة، عبرت عن قدرة الشاعر في تلوين صوره بمشاعره وبألوان الطبيعة؛ فاستطاع بذلك تعيين حدود الصورة وضبط مساحة ألوانها، مما زاد من إحياءات الصورة وجماليتها.

اهتم الأغرابة في استيقاء ألوانهم من الإمعان في جزئيات الطبيعة، فكان الأسود في أشعارهم مرتبط بالليل، لأنّ سواد الليل ووحشته ينسجم مع المعاناة النفسية التي نقلوها في أشعارهم، وهذا ما أكسب اللون <دلالاته الرمزية من اقترانه بظواهر كونية كالليل والنهار، أو بأحداث، وكائنات تبعث على التشاؤم كالغراب>⁵، ولعلّ "عنتر" كان من أكثر الأغرابة ذكرا لليل في شعره؛ لأنه ارتبط بكلّ ما هو محزن؛ فيقول رابطا بين لونه الشبيه بلون الليل:

¹ المصدر نفسه، ص 150.

² عدنان عبيدات: "جماليات اللون في مخيلة بشار بن برد الشعرية"، ص 360.

³ عنتر بن شداد: الديوان، ص 92.

⁴ ناذر كاظم: تمثيلات الآخر* صورة السود في المتخيل العربي، ص 377.

⁵ المرجع نفسه، ص 440.

شبيهه للليل لوني غير أني بفعلي من بياض الصبح أسنى¹

استحضر الشاعر اللون الأسود للتعبير عن عمق مأساته وعن شعوره بالدونية وهذا الإحساس يحاول الشاعر تبريره بإدخال اللون الأبيض على اللوحة بذكره لبياض أفعاله، وهو بذلك >يخلق دلالات متناقضة تجسد حالة التوتر والقلق الناتجة عن الإحباطات التي تهدد أمنه النفسي، ومحاولة إثبات الذات والاحتفاظ بثقة النفس>².

يستمر "عنتره" في رسم لوحاته مستعملا اللون الأسود عن طريق تكثيفه؛ فيقول واصفا إحدى غاراته الليلية المظلمة:

لقد هممت بغارة في ليلة سوداء حاملة كلون الأدلم³

فالليل هو الوقت الذي اختاره الشاعر للانقضاض على أعدائه؛ حيث شبه ظلمة الليل بلون الحية السوداء، وبهذا عمد "عنتره" إلى >خلق تفاعل وترابط بين المرئيات وحالته النفسية؛ مما يزيد من فعالية الصورة ومن قدرتها على إثارة الحس وتفجير العاطفة>⁴.

كان للحيوان حضور قوي في رسم لوحات الأعرية، لأنه ارتبط بحياة الشاعر الجاهلي خصوصا الصعاليك الذين قاسموه حياة الصحراء القاسية؛ فيصف "الشنفري" الضباع بجلودها السوداء التي تشبه ثياب الرهبان، يقول:

سود سحالييل كأن جلودهن ثياب رهاب⁵

أما "تأبط شرا" فيرسم لوحة لطلوع الفجر؛ حيث لاح ضوءه فشبهه الشاعر بتلك الخطوط البيض في جواد هجين يجمع بين الأبيض والأسود، يقول:

قد لاح ضوء الفجر عرضا بلحته أقراب أبلق أدهم⁶

ويقول "الشنفري" أيضا:

ترود راويي الصحم حولي كأنها عذارى علمين ، الأء ، نديل⁷

إذ يشبه الشاعر أنثى التيس بلونها الأسود الضارب للصفرة في حركتها حوله؛ فهي تروح وتجيء كالعذارى اللواتي يلبسن ثيابا طويلة.

¹ عنتره بن شداد: الديوان، ص 231.

² نوال مصطفى إبراهيم: الليل في الشعر الجاهلي، ط 1، دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع- عمان، الأردن، 2009، ص 267.

³ عنتره بن شداد: الديوان، ص 126.

⁴ نوال مصطفى إبراهيم: الليل في الشعر الجاهلي، ص ص 269، 270.

⁵ ديوان الهذليين، ص 80.

⁶ تأبط شرا: الديوان، ص 68.

⁷ الشنفري: الديوان، ص 72.

أما "عنتر" فلم يترك له الفراق سوى الهم والغم ويظهر هذا في تصويره لركب الإبل الراحل، يقول:

فيها اثنتان وأربعون حلوبة خافية كظل الغراب الأسحم¹

لّون الشاعر صورة الإبل باللون الأسود فشبه لونها بالغراب، فهو لم يجد في تلك اللحظة الشعورية امتدادا وجدانيا لمشاعره التشاؤمية سوى لون النوق الأسود.

مزج "عنتر" في لوحة الفرس بين لونين حربيين فالخيل سوداء لكنّ لونها يتغير بعد انتهاء الحرب، فيصير إلى الأحمر، يقول:

رأيت الخيل بعد سوادها حمر الجلود خضين من جرحها²

جسد الأعرية لوحة الحرب بصور مختلفة يدخل في تشكيلها عدة ألوان منها، الأحمر فهو لون للدماء، والأبيض للسيوف فهذا "عنتر" يرسم صورة غير مألوفة لدى الشعراء الجاهليين حين يشبه الحمرة في الحرب وغير ذلك من الألوان بالوردة، يقول:

إذا م رطبا لأصارت ووردة مثل الدهان

والدمما تجري عليها لوّنها أحمر قاني

ورأيت الخيل تهوي في نواحي الصحصحان

فاسقياني لا بكأس من دم كرجولان³

شبه الشاعر حمرة الحرب بالوردة وكذا حمرة الأرجوان، وهذه الأشياء تثير البهجة والفرحة عند العربي لذا فالشاعر لا يطلب شرب الدماء في كأس حتى يتسنى له أن يروي عطشه، فهذا التشبيه ناتج عن الحالة السوداوية التي عاشها الأعرية؛ فكانت الحرب والدماء بمثابة فضاء ومنتفّس للشاعر لكي يخفف من حجم المهانة التي تعرض لها؛ لذا يقرنها بكل ما هو محبب للنفس، وكذلك لأجل إثبات الذات والتفوق على الآخر الذي ينكره بسبب لونه.

لم تخل اللوحات الحربية من وصف السلاح وبخاصة السيوف والرماح مشيدين في ذلك ببريقها، يقول "عنتر":

بوارق البيض الرقاق لوامع في عارض مثل الغللم، مرعد

ودوابل المسمر الدقاق كأنها تحت المقتام نجوم ليل أسود

¹ عنتر بن شداد: الديوان، ص 17.

² عنتر بن شداد: الديوان، ص 75.

³ المصدر نفسه: ، ص ص 221، 222.

وحوافر الخيل العتاق على الصفا مثل الصواعق في قفار الفدند¹

نقل الشاعر صورة حية لأجواء المعركة واحتدامها؛ فالسيوف تلمع في الغبار المتصاعد، والرماح تشبه النجوم التي تظهر في الليل المظلم، ولقد جاء الشاعر بهذا التشبيه باستعماله للبياض على أنه <رمز للأمل والخلاص>² من هول اشتداد الحرب، فحتى حوافر الخيل بين الصخور تبعث شررا كالذي تبعثه الصواعق، وبهذا فقد فصل الشاعر في ألوان صورته المرهبة للحرب، وفي هذا السياق يقول "تأبط شررا":

وفتم هجروا ليلهم ثم أسروا - ليلهم حتى إذا انجاب حلوا

كلى ماض قد تردى بماض - كسنا البرق إذا ما يسلى³

فشبهه سيوف الفتيان المنزوعة من الأغمد في لمعانها بالبرق.

شكل الأغرابة لوحات حسية للغول على الرغم من أنه ليس محسوسا، وهذه المدركات غير الحسية <لا ترجع في معرفتها إلى حواس الشاعر وإنما تعود إلى الثقافة الذهنية؛ فهي أصول ثقافية جماعية تشكل الخلفية الفكرية لأمة ما>⁴، وانطلاقا من هنا رسم "عنتره" صورة للغول واصفا سواه، وأظافره الحادة وعيونه الزرقاء، يقول:

والغول بين يدي يخفى تلة - ويعود يظهر مثل ضوء المشعل

بنواظره زرق ووجه أسود - وأظافره يشبهن حد المنجل⁵

فالغول كائن خفي يظهر تارة ويختفي تارة أخرى لا يستطيع أحد أن يمسك به، فهو كضوء المشعل يلوح بريقه ثم ينطفئ ثم يعود فيسطع، وقد أظهر الشاعر الغول في صورة بشعة بعيونه الزرقاء ووجهه الأسود، وهما صفتان يكرههما العربي لأنهما ألوان العدو.

أما "تأبط شررا" فخلق صورة مشوهة للغول، كما ألبسه ثوبا باليا أسود اللون، يقول:

¹ عنتره بن شداد: الديوان، ص 138.

² فوزي عيسى: قراءة النص الشعري، (د.ط.)، دار المعرفة الجامعية- مصر، القاهرة، 2007، ص 310.

³ تأبط شررا: الديوان، ص 249.

⁴ زهر فارس: الصورة الفنية في شعر عثمان لوصيف، مذكرة دكتوراه غير مطبوعة، إشراف: يحيى الشيخ صالح، جامعة منتوري، قسنطينة، 2005، ص 94.

⁵ عنتره بن شداد: الديوان، ص 202.

كـرأس للهـر مشقوق اللسان

إذا عينان في رأس قبيح

وثوب من عباء* أو شنان^{1**}

وساقا مخدج وشوارة كلب

فالشاعر يرسم صورة للغول، فعيناه قبيحتان ورأسه كـرأس الهـر ولسانه مشقوق، وحتى الثياب فهي سوداء ممزقة وبالية، وهذه الصورة البشعة للغول الهدف منها هو إثارة الخوف والرعب، فكان للخيال دور في تشخيصها وللون دور في تعميق دلالتها المفزعة.

استثمر الأعرية ألوان الطبيعة في إبراز معالم الصورة، وذلك باستعمال الألوان منفردة، أو بالمزج بين عدد من الألوان، وهذا وفقا للحالة الشعورية التي يتخبط فيها الشاعر، فكانت صورهم جزئية مليئة بالأضواء والألوان، تعكس الجانب الخفي من القهر الذي تعرضوا له، فبالرغم من تلك الهوة السحيقة بين ما يفكر فيه الشعراء الأعرية؛ الذين لم يكن >عندهم وقت لتأمل ظواهر الوجود، فأغلب الذي كان يعينهم هو كل ما يتصل بوجودهم البائس في هذا العالم الذي يعيشون فيه، سواء أكانوا في حالة خوف، أم حذر، أم مصالحة مؤقتة²، إلا أنهم استخدموا الألوان للتعبير عن الحالات الشعورية الطافحة، أو من أجل وأد الصدع المائل بينهم وبين من دفعوا بهم إلى هذا الصراع المرير الذي سببه لون بشرتهم.

أكثر الأعرية من التمثيل بالتشبيه في الكشف عن أبعاد الصورة الفنية، كما لجأوا إلى استعمال التقابلات اللونية خصوصا بين اللونين الأبيض والأسود، وهذا ما يلاحظ في شعر "عنتره" في توظيفه لهذه المقابلة، فكان أكثر الأعرية حضورا واستيفاء لصور مختلفة ومتعددة، وهذا لاختلاف طبيعة حياته في بعض جوانبها عن باقي الشعراء الأعرية الصعاليك؛ في كونه رفع راية التمرد ضد القوانين الاجتماعية، ولكنه لم يخرج عن سلطة القبيلة كليا كما فعلوا، فهو اختار المواجهة والدفاع عن حقه ومكانته وحري

¹ تأبط شرا: الديوان، ص ص 226، 227.

* عباء: كساء من خطوط سود. ** شنان: الخلقة البالية من الجلد تكون داكنة اللون.

² عبده بدوي: الشعراء السود، ص 339.

الفصل الثالث

إضافة إلى ما تقدم ذكره من الدلالات الجمالية للألوان في شعر الأعرية، سنتناول في هذا الفصل ثلاثة أبعاد أخرى يبرز من خلالها التوظيف الجمالي للألوان، وهذا لايتأتى إلا بتحديد الأبعاد ثم توضيح دلالاتها.

يعدُّ البعد الاجتماعي أكثر الأبعاد ارتباطاً بحياة الغراب - داخل مجتمعه - والذي من خلاله يمكن معرفة الدلالات الاجتماعية للألوان المؤثرة في اختيارهم وتفضيلهم لبعضها دون الأخرى، كما تساهم في الكشف عن بعض القيم السائدة في المجتمع القائمة على أساس لوني.

ثم يأتي البعد النفسي الذي يكشف عن مدى تعامل الغراب مع الألوان، وعن الأثر الذي تتركه في نفس كل واحد منهم، فتتحكم في منح الدلالات وتوجهها توجهاً معيناً. أخيراً البعد الأسطوري وذلك من خلال استقصاء بعض الرموز الأسطورية في أشعارهم، ثم الغوص في جذورها وتوضيح دلالاتها اللونية.

1- البعد الاجتماعي:

لم تكن عصبية المجتمع الجاهلي تظهر في وحدة القبيلة والاعتزاز بالانتماء إليها، بل إنَّ التعصب شمل كل نواحي الحياة تقريباً، بما في ذلك نظرتهم للألوان التي شكّلت جزءاً من كيان الإنسان الجاهلي، فبنوا عليها قيماً ومبادئ تبرز خاصة في العنصرية اللونية التي تأدت منها طائفة من الشعراء الأعرية، فكانت سبباً رئيساً في تشتت هوية الشاعر الغراب وضياعتها بين مجتمع ينكره ويرفضه للونه، وبين ذات ممزقة تسعى جاهدة لنيل حقوقها ومكانتها؛ في محاولة منها لتجاوز نظرة الانتقاص، وهذا ما ولد في نفس الغراب نزعات الرفض والتمرد اتجاه مجتمع سلبه حرّيته وانتماءه، وجعله يعيش مهتماً لا لشيء سوى للونه المختلف المكروه داخل مجتمع يقسّ الأبيض ويسمو به، وبالمقابل يزدرى الأسود ويتشام منه، وهذا ما نلمسه في شعر الأعرية الذين حملت ألوانهم أبعاداً اجتماعية تعكس الحياة الجاهلية بمختلف جوانبها.

من أهم الأبعاد الاجتماعية التي تناولها الأعرية في أشعارهم وعكسوا من خلالها تركيبة المجتمع القائمة على طبقة؛ سواء أكانت اجتماعية تتعلق بالطبقة التي ينتمي إليها الغراب، أو كانت طبقة لونية تتجسد في حب الأبيض وكره الأسود، وكلا الجانبين يتدخلان في تشكيل مأساة الشاعر الغراب وشعوره بالضياع وعدم الاستقرار، بسبب ما شكّله اللونين الأسود والأبيض من تقسيمات داخل المجتمع؛ فالأبيض لون السيد الكريم، أمّا الأسود فهو لون العبد الوضيع، يقول "عنتره":

فإنّ لمتّ لمي غولبية - من بلاء حاتم بها عبي
فإنني لطيف بيض لظني - وسمر العوالي إنا جتني¹

يكشف الشاعر من خلال أبياته عن تلك الطبقة الاجتماعية التي تنتمي إليها أمه، وهي طبقة العبيد المتدنية وهذه الطبقة تحمل اللون الأسود، فلونها لون الغراب على عكس طبقة الأسياد البيضاء التي تمثّل الطبقة العليا، وهذه المكانة الوضيعة أبقى فيها الشاعر افتخارا، فلون أمه لا يعيبه ولا ينقص من إصراره شجاعته وهذا ما يتوعد به أعداءه في الحرب ويردّ به الاعتبار لنفسه.

كانت طبقة الإماء هي أكثر طبقات المجتمع تعرضا للامتهان والذل، من ذلك ما قاله "السليك" واصفا حالة خالاته والاستغلال الذي تعرضن له، مؤكدا >هوان الجنس الأسود الذي ينتمي إليه خالاته<²، يقول:

أشاب الرأس أني كلّي يوم - أرى خللة وسط الرجال
يعجز علي أن يلقين ضيما - ويعجز عن تخلصهن ملي³

فهو يسلط الضوء على الأوضاع الاجتماعية المزرية التي تتخبط فيها النساء السوداوات من الإماء، التي لا تصلح إلا لخدمة السادة وتلبية متطلباتها، ممثّلا بذلك قيمة اجتماعية متمثلة في الاستغلال من طرف فئة انتهازية، واصفا بذلك >العنصرية اللونية التي جعلت الإنسان

¹ عنتره بن شداد: الديوان، ص36.

² عبده بدوي: الشعراء السود وخصائصهم في الشعر، ص56.

³ عبد القادر عمر البغدادي: خزانة الأدب ولب لباب العرب، تحقيق: عبد السلام هارون، (د.ط.)، مكتبة الخانجي - القاهرة، 1988، ج3، ص128.

يزري بأخيه الإنسان لا لشيء إلا لأنه يرى بياضه قد أنزله مكانة لا يدانيها أصحاب البشرة السوداء¹.

أما الطبقة المناقضة للعبيد فهي الطبقة العليا التي تتميز عن سابقتها بلون بشرتها الأبيض، فالأبيض يرمز للسيد الكريم، وفي هذا يقول "السليك" متحدثاً عن الفوارق الطبقيّة واللونين:

الأعانب تـ علي فصلر عمي - ولجها نـو - مله الطوال

فإني يالـبة الأوامـلي - على فعلى الـوى من الرجال²

فهذه المرأة تبدي إعجابها بالرجل الأبيض لوسامته وضخامته، وبالمقابل تنفر من الشاعر لسواده وتزدري حالته، إلا أن الشاعر يلجأ إلى تبرير سواده وبياض غيره في كون هذا الرجل لم تنهكه الحروب، لذا بقي محط إعجابها عكس ما هو عليه الشاعر.

أكثر الأعرية من استعمال كلمة "هجين" في أشعارهم؛ فنجدهم لا يذكرن >اللون لذاته وإنما كونه صفة ذاته على شيء آخر مثل الرتبة الاجتماعية³، فالهجين هو من كانت دماؤه مختلطة، كأن يكون من أم غير عربية وأب عربي مثلما هو حال "عنتره"، وقد أشار "الشنفرى" إلى هذه القضية، والتي تعرض بسببها للتعنيف والإذلال، يقول:

الأهل أتى فتيلان قومي جماعة - بما لطمت كف الفتاة هجينا

لوعلمت تلك الفتاة مناسبى - ونسبها ظلت تقاصر دونها⁴

كشفت قصة "الشنفرى" مع الفتاة عن المرتبة الدونية التي حظي بها العبيد الهجاء، في مقابل طبقة الأحرار التي تمثلها الفتاة، فهذه الفوارق الطبقيّة كانت إحدى الدوافع التي جعلته يرفع من شأنه ويفاخر بنسبه ليحطّ من قيمتها فيجعل نسبه أفضل وأعرق من نسبها، وهذا نتيجة لشعوره بالخزي والمهانة من جراء المعاملة والإهانة التي لحقت به.

¹ خالد محمد الجديع: "سيمياء اللون في الشعر السعودي المعاصر"، عالم الكتب، العدد 655، ماي 2007، ص452.

² أبو العباس محمد بن يزيد المبرد: الكامل، تحقيق وتعليق: أحمد محمد الدالي، (د.ط.)، مؤسسة الرسالة للنشر-بيروت، لبنان، (د.ت.)، ج1، ص310.

³ رافعة سعيد السراج: "اللون الأسود في شعر عمر بن أبي ربيعة"، مجلة التربية والعلم، العدد 1، 2010، المجلد 17، ص123.

⁴ الشنفرى: الديوان، ص41.

تبدو نزعة التمرد واضحة في شعر الأعرية؛ إذ كثيرا ما يلجأون إلى إعطاء الكثير من التبريرات، وهذا نتيجة لشعورهم بعقدة النقص فيعمدون إلى قلب الأدوار والتعالي بالنفس والسمو بها، كمحاولة للتعويض وبعث الأمل لتحقيق بعض التوازن والاستقرار النسبي، يقول "عنتره" مفتخرا بهجته:

.. لَأَهْجِنَ عَتْوَهُ كَيْ لِمَرِيٍّ يَحِيَّ جَوْهَهُ¹

حتى وإن بدا الشاعر مفتخرا في الظاهر بـ أنه هجين إلا أن موقفه هذا هو رد فعل عكسي اتجاه ما يلاقيه من الدل والاحتقار الناتج عن سواده، والذي لم يجد حلا له سوى التحدي به والاستعلاء ليعوض شعوره بالنقص، لأن الهجاء كما تحدث عنهم "عبده بدوي" هم الأسوء حظاً والأوضاع منزلة اجتماعية، فلجأ الشاعر إلى تغطية ضعف نسبه الذي يعبر به إلى الافتخار؛ فكأنه يريد أن يقول إن دمه الهجين كان مصدر قوته وشجاعته التي وفّر بها الحماية لغيره.

بهذا تتضح مظاهر القهر الاجتماعي في شعر الأعرية وسببها فكرة >انتشار الأسياد والعبيد، فالأسياد طبقة ضدية تمارس سطوتها وقسوتها، وتتمتع بملذات الحياة، ولكنها لا تستطيع أن تحمي نفسها من هجمات العدو، أما العبيد فهم مقهورون يضعون الحياة لهؤلاء الأسياد، وهم الطبقة المنتجة الفاعلة²، وهذا ما عليه حال "عنتره" إذ يقول:

يَبْلُغُونِي فِي اللَّسَمِ - يَا ابْنَ زَيْبِيَّةِ وَمَعْدَ صِدَامِ الْخَيْلِ - يَا ابْنَ الْأَطْيَابِ³

معروف عن "عنتره" أنه عاش حياته يدافع عن قبيلة وينصرها، إلا أن هذا لم يشفع له عندهم، بل ظلّ في نظرهم ابن السوداء؛ إذ يدعونه في الحرب بابن الأطياب للدلالة على مكانته وحاجتهم إليه، وتنتهي مهمته بانتهائها؛ فَيُكَيِّبُ ابْنَ زَيْبِيَّةِ دَلَالَةَ عَلَى لَوْنِهِ وَهَوَانِ مَنْزِلَتِهِ.

¹ التبريزي: شرح ديوان عنتره، قدم له ووضع حواشيه: مجيد طراد، ط1، دار الكتاب العربي - بيروت، 1993 ص139.

² عبد الناصر هلال: رؤية العالم في شعر أمل نعل، ط1، العلم والإيمان للنشر والتوزيع، 2009، ص125.

³ عنتره بن شداد: الديوان، ص103.

لقد كان الجاهليون يفخرون بانتسابهم لقبائلهم ويعتزون بذلك، إلا أن الأعرية انصرفوا في كثير من الأحيان عن هذا الفخر لضعف نسبهم من جهة، ولكونهم لم تربطهم علاقات جيدة بقبائلهم، فبعضهم تعود على قوانينها وفضل حياة الصحراء، أما من بقي فظلّ عار اللون يلاحقه ويحطّ من قيمته، يقول "عنتره":

وَأَنْ سَلَوَا الْعَبْدَ الَّذِي يَقْصِدُ الْخَلِيَّ إِذَا طَمَعُ ارْتَفَعُ
نَسَبِي سَيْفِي وَرَمَحِي وَهَمَا يُوْنَسَانِي كَمَا اشْتَدَّ الْفَرْعُ¹

الشاعر لا ينكر سواد جلده ولا عبوديته، لكنّه يرفض مكانته المنحطة، لأنّها السبب الذي ينزل من قيمته، فيترفع عن النسب الوضيع، لأنّ نسبه الحقيقي يظهر في ساحة المعركة. إن كان "عنتره" اختار السيف والرمح نسبا؛ فإنّ "الشنفري" هجر المجتمع الإنساني بأكمله واختار مجتمعا جديدا لا يفرق بين أبيض أو أسود، ولا بين عبد وسيد يقول:

وَلِي دُونَكُمْ أَهْلُونَ سَيِّدٌ * عَمَلِي وَأَوْقَطُ ** يَهْوِلُ وَعَرْفَاءُ جَيْلٌ²

كان "عنتره" أكثر الشعراء تحديا بلونه فاستطاع نيل اعتراف أبيه وفرض كيانه ووجوده، لأنّه اقتنع في داخله بأنّه حر، وسواد لونه لا يعطي للآخرين حق في استعباده، لذا نراه يلجأ في شعره إلى قلب >المعادلة لعدم رضاه عن هذا الاستعباد فيحوّل العبد إلى سيد<³، وهو يقول:

وَمَنْ قَالَ لِي سَوْدٌ لِيُعِينِي ، أُوَيْدُهُ بَضْعِي أَهْ ، أَكَلَبُ النَّاسِ⁴

الشاعر هنا يكشف عن علاقة اللون الأسود بمنزلته الوضيعة، التي جعلته عبدا ذليلا، إلا أنّ الشاعر يكتب هذه الصفات، فمشكلة اللون لا تعدّ عيبا إذا ما قيست بحجم إنجازاته المتمثلة في انتصاراته وبطولاته.

ويعدّ اللباس مؤشرا اجتماعيا، لكونه مظهر خارجي تتحدد من خلاله الطبقة التي ينتمي

إليها الشخص، فيعرف من لباسه إن كان سيّدا غنيا أم عبدا فقيرا، فيقول "الشنفري":

¹ عنتره بن شداد: الديوان ، ص166.

² الشنفري: الديوان، ص59.

* سيد: الذئب. ** أرقط: الذي فيه بياض وسواد. *** جيتل: من أسماء الضبع.

³ خالد محمد الجديع: "سيمياء اللون في الشعر السعودي المعاصر"، ص452.

⁴ عنتره بن شداد: الديوان، ص160.

ولي زعيم أن لم عجاجي على ذي كساء من سلفان أوبريد¹

أما فيما يخص الزينة فقد كان ارتداؤها دليل نعيم وترف، فتوحي بأن صاحبها لا يطوله فقر وعوز، وقد وصف الشعراء اللباس الموشح بالديباج والحلي للدلالة على الثراء والرخاء، ولتميّز أصحابها عن الطبقة الكادحة التي تقوم بالأعمال الشاقة، يقول "عنتره":

لمن الشموس عزيمة الأحراج يطن بين الوشي والديباج

من كل فائقة الجمال كدمية من لؤلؤ قد صورت في عاج

تمشي وترفل في ا لثياب كأنها غصن ترخ في قارجراج²

ارتبط الأسود في الفكر الجاهلي بأجواء الحزن والكآبة، فارتدى الناس اللباس الأسود

حدادا وتعبيرا عن الأحزان والمصائب التي يتلقاها الإنسان، يقول "عنتره":

وقد كنت أخشى أن أم وتروهم قرائب عمرو وسط فواح مسل^{3*}

من خلال هذا البيت ندرك أن ارتداء النساء للسواد لا يكون إلا في المآثم والأحزان.

اعتبر الأصفر رمزا للذبول والموت خصوصا الباهت منه، إلا أن ارتباطه بالشمس

أعطاه بعدا آخر؛ من ذلك دلالاته على الكرم والسخاء، فاستعمله الشعراء في المدح، يقول

"تأبط شرا":

شامس في القر حق إناما شكت الشعوى فويد وظي⁴

كانت البيئة الصحراوية كثيرا ما تقتقر للخضرة بسبب قلة الأمطار ونذرتها؛ مما جعل

العرب كثيري الترحال والتنقل بحثا عن الظروف الملائمة والاختضار، ولذا احتل الأخضر

مكانة خاصة عند العرب باعتباره رمزا للخصب والنماء والخير، فكثيرا ما كان الشعراء

يدعون للأرض بالاستسقاء والارتواء لتعم فيها الحياة، يقول "عنتره":

هبطك يا أرض الشربة همة بيوي ثالك هموعها همة

¹ الشنفرى: الديوان، ص 42.

² عنتره بن شداد: الديوان، ص 113.

³ المصدر نفسه، ص 42.

* المسلب: علمن لباس الحداد.

⁴ تأبط شرا: الديوان، ص 249.

وهما الربيع يراك من - لؤاره حلا إذا ما الأرض فاح ربيعها¹

من خلال هذا العرض يظهر توظيف الأعرية للون الأسود دون الألوان الأخرى بصورة مكثفة، فجدوا من خلاله قيما اجتماعية تبرز في الطبقة، التي تحكّم في ظهورها اللونين الأبيض والأسود، فاختر الأبييض ليكون لون السيد الكريم، والأسود ليكون لون العبد الوضيع، وهذا ما جعل الغراب يحتلّ مكانة وضيعة بسبب لون بشرته، إذ كشفت هذه التقسيمات عن أثر العنصرية اللونية في تركيب المجتمع الجاهلي، فحبّه للأبييض جعله يستعبد ويسترقّ الأسود، كما نلاحظ أنّ الشاعر الغراب كثيرا ما كان يلجأ إلى قلب الأدوار، وإلى تبرير لونه وتأكيد ذاته والسمو بها، محاولا بذلك خلق نوع من التوازن في مجتمع أقصاه للونه، كما هو حال "عنتره" في دفاعه عن لونه والذي تحدى به إلى درجة أنه اعتبره مصدر القوة والعزة.

2- البعد النفسي:

من خلال تتبعنا لدلالات الألوان في شعر الأعرية من الجانب الواقعي؛ والذي أظهر بوضوح الانشقاق العميق بين الشاعر الغراب ومجتمعه، والسبب في ذلك عقدة اللون المتمثلة في لون بشرتهم السوداء، التي أدخلتهم في صدمات مع المجتمع ومع نواتهم، لأنّ مشكلة اللون ظلّت تلاحقهم أيضا ارتحلوا وحاوا، فهي جزء من كيانه المرفوض، الذي لم يقبل به الجاهليون ولم يعترفوا به، ومن هذا المنطلق يتجلى إحساس الشاعر الغراب بالألوان لكونه اعتمدها للتعبير عن حالاته الشعورية اليائسة في ظلّ مجتمع سلبه حريته؛ لأنّ لونه يختلف عما أحبه وألّفه، لذا حملت الألوان في شعرهم أبعادا متباينة، فيعكس كلّ لون فيها حالة نفسية معينة.

تجلى اللون الأسود في الليل على اعتبار أنّ الليل لون غير مباشر للدلالة على السواء وبالتالي حمّله الأعرية أحاسيسهم وهمومهم، ونقلوا عبره كل مشاعر الحزن والأسى، في هذا يقول "عنتره":

¹ عنتره بن شداد: الديوان، ص 169.

إِن النِّينِ نَعَيْتِ لِي بِفِرَاقِهِمْ هَمُّ أَسْمَهْرُوا لِي لِي التَّمْلَمِ فَأَوْجَعُوا¹
 من هنا ارتبط الليل بالألم والوجع، فكان رمزا للحزن والفرق لدى المحبين خاصة من ذلك قول "عنتره":

إِن كُنْتُ أَزْمَعْتُ الْفِرَاقَ فَإِنَّمَا زَمَمْتُ رُكَابَكُمْ بِلَيْلٍ مَّظْلَمٍ²
 ربط "عنتره" بين الليل والفرق؛ لأنَّ الليل هو الوقت الذي اختارته "عبلة" للبعد والنأي، فصار ليله كئيبا مظلما، لا يثير فيه سوى الذكريات المؤلمة والأحزان، وقد لجأ الشاعر لتكثيف اللون الأسود ليبدل عن حالة شعوره باليأس الناجم عن الرحيل، خصوصا أنه لم يتسن له وداعهم أو معرفة وجه تهم، فلجأ إلى تكثيف الليل ليؤكد تشاءم الأعرية من الليل، فهو مصدر للوحدة والوحشة بما يثيره من مشاعر الحزن والأسى، يقول "عنتره":

وَأَجْفَانُ تَبِيَّتْ مَقْرَحَاتٍ تَسِيلُ دَمًا إِذَا جَنَّ الظَّالِمُ³
 فالشاعر لا يتفاعل بقدم الليل، لأنه لا يحمل معه سوى الهموم والأشجان، فحلول الظلام يجعله يبكي حرقة وألما على من رحلوا وتركوه وحيدا يعاني الشوق والحرمان، وهو نفسه ما عاناه "تأبط شرا" من ليله الذي لا يعرف فيه الراحة والهدوء بقدر ما يحس بالشوق والتعب، يقول:

يَا عَيْدَ مَالِكٍ مِنْ شَوْقٍ وَإِيرَاقٍ وَمِنْ طَيْفٍ عَلَى الْأَهْوَالِ طِرَاقٍ
 يَسْرِي عَلَى الْإِنِّ وَالْحَيَاتِ مَخْتَفِيَا نَفْسِي فِدَاؤُكَ مِنْ سَارٍ عَلَى سَاقٍ⁴
 إنَّ نفس الشاعر اعتادت على هذا الوضع؛ فكلاً ما حلَّ الليل سارت إليه الهموم والأهوال وأنها طيفيسير ليلا ويطرق بابه دون أن يحدث صوتا، فلا يُتنبه له لأنَّ سيره يشبه زحف الحيات؛ حين تعزم على الرحيل فلا تحدث جلبة أو ضجة.

¹ عنتره بن شداد: الديوان، ص48.

² المصدر نفسه، ص17.

³ المصدر نفسه، ص212.

⁴ تأبط شرا: الديوان، ص125.

نفر الأعرية من الليل بما يجلبه من مشاعر الخوف والفرع، من ذلك وصف "الشنفرى"
لبرج المراقبة ليلا، الذي جعله في حالة من الاستعداد والترقب، فكان ليله مضنيا وشاقا
يستعص على المجرب المعتاد، يقول:

ومراقبة* عنقاء يقصر دونها
أخو الضروة الرجل الحفي** المحفف
نعيت إلى أدنى دراهم وقد دنا
من الليل ملتف الجديدة أسدف***
فبت على هد الذراعين مجاهيا
كما يتطو¹ وهم الأمتعة فط

شكل الليل هاجسا في حياة الشاعر الغراب، فظلامه يمثل عالما مجهولا يثير فيه مشاعر
مضطربة، خصوصا لما يلاقيه من الأهوال والأخطار في وسط الصحراء، ومما يعمق من
إحساسه هذا مجيء الليل المظلم المثير لمشاعر الخوف والهلع، فبرج المراقبة جعل الشاعر
في حالة من الارتباك، يقضي ليله على وقع الإحساس بعدم الاطمئنان، مشبها حالته هذه
بالتواء الحية السوداء، فلا غرابة أن يكون الليل في نظر الشاعر مثيرا للأخطار والمخاوف.
ولأن الليل باعث للاشمئزاز والنفور، فقد ربطه الأعرية بالموت، من ذلك حديث
"الشنفرى" عن الموت وشعوره باليأس وفقدان الأمل والإحباط، وتسليمه بسلطته التي لا
يستطيع إلا الرضوخ لها، يقول:

«هناك لا أجد حياة تسرني
سجيس* الليلي مسبلا** بالجرائر²

وكثيرا ما لجأ الأعرية لعقد مقارنات بين اللونين الأبيض والأسود، فالأول يرمز للحياة
والأمل والتفاؤل، أما الثاني فيحيل على الموت والفناء، من ذلك ما قاله "عنتره" مقارنا بين
الماضي والحاضر، يقول:

مسبلا أكلن بك الطلبة أوانيسا
واليوم في عرصاتك الغربان³

¹الشنفرى: الديوان، ص53.

* مراقبة: برج المراقبة.

** الحفي: غير المتعل.

*** أسدف: مظلم.

²الشنفرى: الديوان، ص49.

* سجيس الليلي: لا أفعله أبدا.

** مسبلا: مسلم.

³عنتره بن شداد: الديوان، ص229.

فالشاعر يتحسّر على تلك الأيام التي كانت فيها الديار عامرة مليئة بالحيوية والحياة إشارة منه إلى الأبيض في (الظباء)، أما بعد الرحيل فقد حلّ بها السواد (الغراب) ليشير بذلك إلى انعدام الحياة وحلول الموت؛ فالصورة الأولى تثير في نفسه الفرح والبهجة، أما الثانية فتثير فيه الأسى والحزن؛ وبهذا تتشائم الجاهليون من الغراب ولونه الأسود ويقول "عنتره" في هذا:

يا عبل كم تنعق غريبان الفلا - قدمل قلبي في الدجى سماعها¹

يخاطب الشاعر "عبلة" ويشكو لها نعيق الغراب الذي يثير فيه الأشجان والأحزان، خصوصا عند حلول الظلام مما يزيد في معاناته، وشعوره بالفقد والخوف والحزن، فيقول في موضع آخر:

وكيف يجيبني رسم محيل - بعيد لا يؤد على سؤالي
إذا صاح الغراب به شجاني - وأجرى أدمعي مثل الآلي
وأخبرني بأصناف العزاي - وبالمجران من بعد الوصال
غراب البين ما لك كل يوم - تعاندني وقد أشغلت بالي
كأنني قد ذبحت بعد سيفي - فراخك أو قنصتك بالجبال²

فالشاعر يقف أمام الديار الخاوية من أهلها، فلا يجد سوى الغراب ليعاتبه لأنه سكن ديار الراحلين، مما يعني السواد وحلول الخراب والدمار، بعدما كانت مليئة بالنور والحياة، فيخاطبه ويلومه بسبب نعيقه الذي يزيد شعوره بالأسى واليأس، ويتعجب من فعله ومن معاداته له، بالرغم من أنه لم يؤده، فهو لم يحاول اصطياده أو التكيل بفراخه، لذا لا يجد مبررا لهذا العداء.

كانت رؤية الطيور الجارحة تدعو للتشاؤم لما تتمّز به من الشدة والفتك، لارتباطها بالحرب وكثرة القتلى، فهي تعكف على جثث الموتى وتتهش لحمها؛ لذا أكثر الأغرابة من

¹ عنتره بن شداد: الديوان ، ص167.

² المصدر نفسه، ص187.

ذكر العقاب > وأعظم الجوارح العقاب وليس بعد النسر من الطير أعظم منها وهي سوداء دجوجية...¹، ومن ذلك قول "تأبط شرا":

تضحك الضبيع لقتلى هديل - وتري الذئب لها يستهلي
وعتاق* الطير تغذوا بطانا - تتخطاهم فما تستقل²

فالشاعر يصف منظر الحيوانات المفترسة والطيور الجارحة وكيفية إقبالها على جنث القتلى المتخلفة عن المعارك، فالذئاب والضباع سرت بحصولها على الغذاء دون تكبد العناء، أما الطيور الجارحة فلم تستطع أن تطير لكثرة لحوم البشر التي أكلتها، لذا اقترن العقاب بالموت، فهذا "عنتره" هو الآخر ينقل صورة مخيفة للعقaban، وهي تحوم حول الجنث يقول:

وكم من فارسي أضحي بسيفي - هشيم الرأس مخضوب اليدين
تحوم عليه عقبان المنايا - وتحجل حوله غريبان³ بين

جاء الأعرية بالبرق ليدلوا به على اللون الأبيض والتفاؤل، فهو يطرد الهموم والأحزان ويبعث في الحياة الأمل وحب الاستمرار والبقاء، فيقول "عنتره":

بوارق البيض الرقاق لوامع - في عارض مثل الغللم رعد
وذوايل المسمرالذقاق كأمها - تحت القتام نجوم ليل أسود⁴

فما يبعث في نفس الشاعر الأمل والارتياح رؤيته للمعان وبريق السيوف في جو المعركة المظلم المسود.

كانت الإبل جزءا من لوحة الطعن؛ حيث وصفها الشعراء مهتمين بتحديد ألوانها

وأعدادها، من ذلك وصف "عنتره" للإبل التي رافقت محبوبته أثناء الرحيل، فكان لونها أسودا يشبه لون الغراب، معبرا بذلك عن نفسيته اليائسة يقول:

فجها اثنتان ولربعمون حلوية - سوداء كخافية الغراب الأسحم⁵

¹ ابن سيدة: المخصص، (د.ط)، دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان، (د.ت)، ج 8، ص 145.

² تأبط شرا: الديوان، ص 250.

* عتاق الطير: الطيور الجارحة.

³ عنتره بن شداد: الديوان، ص 225.

⁴ المصدر نفسه، ص 138.

⁵ المصدر نفسه، ص 17.

يقول أيضا:

هجرت بيوتك ، شرفات وشاقي - بلحق - واضي تحت ظم لقتام

...

إذا أشرعوها لـ - علظ حسبتها - كواكب تهدها بدور تمام

وبيض سيوف في ظلال عجاجة¹ - كقطر غواد في سواد غمام¹

يصف الشاعر في لوحته حالته في تلك البيوت المليئة بالأحزان، فهو لم يجد فيها أنيسا ولا صاحباً يتقاسم معه الهموم، فارتحل إلى بيوت حيث يعثر على النور والإشراق، فلم يجد سوى الحرب التي ترتاح فيها نفسه لما يراه في وسط غبار المعركة من بياض ولمعان، وهذا ما يبعث فيه الأمل ويثير لديه البهجة والتفاؤل؛ فيصف الرماح وبريق سنانها مشبها إياها بالنجوم المضيئة، ثم يعود إلى ذكر بريق السيوف الذي شَبَّهه عند إثارة الغبار بالبرق الذي يشق طريقه في الغيوم السوداء.

جَدَّ الصبح بنوره المشرق التفاؤل والخير في حياة الغراب، خصوصا إن كان بعد ليل

طويل مليء بالشقاء والهم من جراء الحرب، يقول "تأبط شرا":

جزى الله فتيانا على العوص أمطرت - سماؤهم تحت العجاجة* بالدم

وقد لاح ضوء الفجر عرضا كأنه - بلمحته أقراب - أبلق - أدهم²

فهو يصف حالة أصحابه وإقدامهم في جو المعركة المحتدم المغبر؛ فلم يهنوا ويجزعوا ويتراجعوا حتى لاح ضوء الصبح، فشبه نوره الساطع وانجلاء الليل بحصان لونه يجمع بين البياض والسواد، لما يظهر عند انجلاء الليل من بياض يخالطه سواد فكان ذلك مثيرا للتفاؤل في نفس الشاعر.

¹ عنتر بن شداد: الديوان، ص 215.

² تأبط شرا: الديوان، ص 208، 209.

* العجاجة: واحدة العجاج وهو الغبار.

** أقراب: جمع قرب وهو الخاصة. *** أبلق: ما كان في لونه سواد وبياض.

تظهر الدلالات السلبية للون الأبيض في الشيب مما يجعله لونا مكروها يبعث على الحزن والكآبة والضعف، فالبياض تنفر منه النفس وتمجّه، إلا أنّ "عنتره" رسم في شعره صورة مبهجة له، حين ربطه بنور الصبح والحياة يقول:

ذني لعبله ذنب غير مغتفر ل ل تبليح صبيح الشيب في شعري¹

فهو لا يملك اتجاه الشيب قوة أو سلطة لردعه، فترضى بذلك "عبله" وتغفر له هذا الذنب، لذا فالشيب يدعو للتشاؤم، فينذر بقرب الأجل، وضياح الشباب، فيثير في نفسه الشعور بالعجز والقلق والضياح اتجاه المستقبل. ولعلّ هذا ما جعل "عنتره" يلجأ إلى هذه الصورة ليخفف من حدة وقع الشيب في نفسه.

أما في موضع آخر فيتحدث عن شيب من نوع خاص؛ فيقول:

سائ لي يا عيل عني خيرا وشجاعا قد شيبته الحروب²

فالشاعر يتحدث عن شيب آخر ينتج عن الأهوال والشدائد؛ فالفارس يلحقه الشيب من كثرة الأخطار المحدقة به في المعارك والحروب، وهذين النوعين كلاهما لا تبتهج بهما النفس. إذا كان اللون الأبيض لون الصفاء والنقاء والطهر؛ فإن هذه الدلالة كثيرا ما تغيب، إذا اختلط البياض بأشياء تؤدي إلى تغير لونه، من ذلك ارتباطه بالغبار الذي يجعل دلالاته مقيبة منفرة، ولعلّ هذا يذكّرنا بقصة قتل الجن بالكعبة، فجاءت من بعده الجن لتطلب بالنثار والانتقام، ومنه كان الغبار مصدرا للخوف والرعب خصوصا في المعارك؛ فيقول "عنتره":

وخيل تحمل الأبطال شعثا غدا العرعور مثل السهام

عناجيح تحب على رحاها شير الطعق بالموت المرؤام³

فالشاعر يصرّو الخيل وفرسانها بما عليها من غبار ليزيد من تهويل الموقف وليبعث في النفوس الرعب والخوف، وهذا الغبار كثيرا ما تبتهج به نفسه، ولجأ إلى تكثيفه ليؤكد أنّه يحمل الخراب والموت لأعدائه، ويقول أيضا:

¹ عنتره بن شداد: الديوان، ص150.

² المصدر نفسه، ص101.

³ المصدر نفسه، ص66.

* عناجيح: الواحد عنجوج: النجيب من الإبل.

- لم يبي إن غبتا بعد سكرة - فلا تكرر - لظلال سلى ولا هد
 - ولا تكرر والي غير خلى مغيرة - ونقع غب - ارحالك اللون مسود
 - فإن غبار الصافنات* إذا علا - شقت له رجاءاً من النذ^{1**}

إن الشاعر يدعو صاحبيه إلى التأمل في فعالة، فيذكرهما بهول المعركة والحديث عنها بدلا من الحديث عن الغزل والنساء؛ ليصرفهم بذلك عنه، فيرى أن رائحة الغبار التي تثيرها الخيل في جو المعركة أركى من رائحة الطيب في أنفه.

ورد الغبار كذلك في وصف حالة الناس للدلالة على الفقر والجوع، إلا أن "تأبط شرا" يصف رفاقه بأنهم "شعث" بسبب ما يتراكم عليهم من الغبار، فهم لم يغتسلوا بسبب انشغالهم بالحرب، يقول:

- مساعرة - شعث كل عيونهم - حريق الغ - ضل نفي عليها شقائق²

أما الدم فيحمل مشاعر الخوف والقتل لذا كرهه الناس خصوصا في ميدان الحروب، يقول "عنتره":

- وما هز قوم - رواية للقلنا - من الناس إلا لهم طمت³ دما

كثيرا ما أبدى "عنتره" في شعره إعجابه بالحرب ولونها الأحمر الناتج عن إراقة الدماء، والتي بدورها تدل على كثرة انتصاراته وقوته، يقول:

- صحبني إلى آل عبي عصاية - لها ش - فبين القبائل يفت

- هليل على الأسد - في كوطن - كل دم - الكلاء في فهم م شهد⁴

معروف عن الحرب أنها لا تجلب سوى الدمار والموت، فنتشأموا منها لكنها في نظر "عنتره" وأصحابه لا تحمل سوى البهجة والمتعة لدرجة أنهم صاروا يستمتعون بمنظر الدماء ويستلذون طعمها، فبانت في فهم أطيّب من الشهيد.

¹ عنتره بن شداد: الديوان، ص 101.

² تأبط شرا: الديوان، ص 123.

³ عنتره بن شداد: الديوان، ص 218.

⁴ المصدر نفسه، ص 126.

استعمل الأحمر في الزينة والثياب الفاخرة وخاصة في الخضاب، الذي تستعمله النساء فيبيدين جمالهن، فعدّ لون البهجة والتفاؤل، من ذلك قول "عنتره":

إن الرجال لهم إليك وسيلة
إن ي أخذوك تكح لي وتضبي¹

وبهذا عدّ الخضاب شيئاً محبباً يثير الفرح والسرور، خاصة عند المرأة فيزيدها حسناً وجمالاً وجاذبية، فيعجب بها الرجال وتحظى بموتّهم، لذا فهو يدعو للتفاؤل والبهجة، يقول "الشنفري":

ولا خالف* دارية متغول
يروح ويغود لهنا يكحل²

أما اللون الأصفر فقد تناوله الشاعر الغراب وحدّد دلالاته بحسب كثافة لونه، فإن كان باهتاً دلّ على المرض والموت، من ذلك قول "عنتره":

قد طعن الطعنة للجلاء عن عرض
تصفو كه أجيها وهو مزوف³

فاللون الأصفر هنا يحمل الموت، لأنه يدل على الشحوب، من ذلك أن <الإنسان حين ينزف دمه يفارق الحياة، فيصفر جسده وأسرع ما يظهر ذلك على اليدين>⁴. ويقول "تأبط شرا" محيلاً بالأصفر إلى الموت والهلاك:

دنوت له حق كل قميصه
عرب من ضح الأذراع عصفرا⁵

قدّم الشاعر منظراً شاحباً لمقتل الرجل فبعد موته ونفاذ دمه وتغيّر لونه، أصبح يرى كأنه يلبس قميصاً مصبوغاً بلون أصفر، من هنا كان هذا اللون مثيراً للشؤم وباعثاً على الهلاك. ومن ذلك أيضاً قول "عنتره":

عهم لذي يهد للمهاوكهما
خض البنان ورأسه بالعظم⁶

¹ الخطيب التبريزي: شرح ديوان عنتره، ص 29.

² الشنفري: الديوان، ص 61.

* خالف: مقيم.

³ عنتره بن شداد: الديوان، ص 53.

⁴ أمل أبو عون: اللون وأبعاده في الشعر، ص 182.

⁵ تأبط شرا: الديوان، ص 102.

⁶ عنتره بن شداد: الديوان، ص 27.

أما الأخضر عند الأعرية فقد وجد في أبيات قليلة، لأنه لا يتناسب وحياتهم النفسية المليئة بالصراع والتوتر، من ذلك أن "عنتره" استعمله للدلالة على الخير والحماية، فهو لون يدل على الحياة والاستمرار فيثير في النفس السعادة والبهجة، يقول:

.. لَأَ الرِّبْعِ لِمَ - نَ - يَطِي بِسَاحَتِي - لَسُدْرَانَا مَا الحَوْبَ - مَلَبْتُ نَظْمًا¹

يقول أيضا:

.. فَسَقْتُ يَا - لُؤْلُؤَ الشَّمْسِ بِرَبِّهِ هَمِيَّةً - مِمَّنْ - لَمَّا يَرَوِي ثَوَاكُ هَمُومَهَا
وكَمَا الرِّبْعِ بِرَبِّكَ مِنْ أَهَارِهِ - حَلَا - إِنْ مَا - الأَرْضِ فَاحَ بِرَبِّهَا²

فنزول المطر يعني ارتواء الأرض ونماء الخضرة، فالأخضر رمزا للخصب والنماء، وبهذا كانت هذه الأرض مليئة بالخيرات التي تجلب معها الخير والاستبشار، وتدعو للتفاؤل وبالتالي ضمان الحياة.

أما اللون الأزرق فقد جاء مناقضا للون الأخضر، فوظفه الأعرية وحملوه معاني القوة والشدة والبأس فكرهوه في أسلحة الحرب، فكانت رماحهم زرقاء تحمل الموت للأعداء، ومن هنا كان الأزرق لون شؤم، يقول "عنتره":

عَوَالِي نَوْقًا مِنْ رَمَاحٍ رَدِيئَةٍ - هَرِيرِ الكَلَابِ يَتَقِينُ الأَفَاعِيَا³

في هذا البيت يصف الشاعر شدة الرماح، وحدة أطرافها والصوت الذي تحدثه في الحرب بصوت الكلاب الهاربة من الأفاعي، ليزيد في تأكيد صفة الرعب والفرع التي تثيرها الرماح سواء بصوتها أو حدثها.

لم يخرج الأعرية في توظيفهم للألوان عما هو سائد في مجتمعهم، بل جاءت ألوانهم متضمنة في إطار الجو العام لمشاعرهم، لذا حمل الأسود عندهم معنى الشؤم، والحزن والألم من خلال ارتباطه (بالليل، والغراب، الطيور الجارحة...)، أما الأبيض فهو لون البهجة

¹ عنتره بن شداد: الديوان ، ص 127.

² المصدر نفسه، ص 169.

³ المصدر نفسه، ص 81.

والسرور، يدعو للأمل والتفاؤل (البرق، الظباء...)، بالمقابل كان الأحمر لون الدم والقتل مثيرا للخوف والموت، وفيما يخص اللون الأصفر فقد ركزوا على دلالاته السلبية كالموت والدبول، على عكس ما نجده في اللون الأخضر الذي مثلوا به الخصب والنماء، وإن لم يكثروا من استخدامه، وجاءوا بالأزرق ليدل على معاني الرعب والخوف.

3- البعد الأسطوري:

يعدّ الشعر الجاهلي مصدرا مهما في فهم الحياة الجاهلية بكل جوانبها السياسية والاجتماعية والدينية، فهو عالم واسع نستطيع من خلاله استكشاف تاريخ الأمم والشعوب، ومنه كان الشعر الجاهلي وثيقة يسجل بها العربي أيامه، وحروبه، وعاداته وتقاليد، وشعائره الدينية، وكلّ هذه الأشياء تعكس طريقة تفكيره ونظرته للأشياء، فكانت الأسطورة إحدى الوسائل التي استعان بها العربي في فهم كوامن الأشياء، فصنع بها عالما خاصا يمتزج فيه الخيال بالواقع.

فإذا كانت الأسطورة تشمل كل نواحي الحياة، فالشعر هو الآخر جزء لا يتجزء منها، لذلك فالشاعر الجاهلي لم يستغن عن الأسطورة، وكثيرا ما نجده يضمنها في أشعاره، ومنه كان للأسطورة حظّ في شعر الغراب برزت من خلال توظيفه للألوان فعكست واقعه وجسّدت رؤاه ودواخله على اعتبار أنّ الأساطير >ترمز إلى الرغبات والانفعالات التي يشعر بها كل فرد من أفراد المجتمع على الأرض<¹، ومنه جاءت ألوانهم حاملة لإرث أسطوري يعو عن ثقافات شعوب مختلفة، ولكنهم أعادوا>بناءها ومتطلبات موقفهم الشعوري إزاء المجتمع الذي صّف قيم أبنائه حسب ألوانهم، فخلعهم من إنائه بسبب لونهم الخارج عن قوانينه<².

تبرز الملامح الأسطورية للون الأبيض في شعر الأعرية بارتباطه ببعض الممارسات والعبادات المتعلقة بمقدسات العرب كالشمس والقمر، فوظّفه الغراب بدلالاته الأسطورية

¹ فضيلة عبد الرحيم حسين: فكرة الأسطورة وكتابة التاريخ، ص 89.

² خالد زغريت: "جماليات اللون في شعر الأعرية الجاهليين"، ص 75.

ليُعبّر عن قيم الرجل البطل المثالي الذي ظلّت صورته تراود الغراب؛ فهو لم يستطع تجسيدها وإثباتها على أرض الواقع فاللون الأسود حال دون تحقيقها، يقول "عنتره":

وفوارس قد علمهم صبر على التكرار والمكلم
يمشون والمادي فوقهم - يوقنون توقد الفحم
كم من فتح فيهم أخي ثقة حرّ لرغٍ كهوة الرمم¹

فالشاعر أضفى على فرسانه مظاهر القوة والجلال، فخصّ الواحد منهم بلونه الأبيض مشبها إياه بالطبي الناصع البياض، ثم يعود فيؤكد الصفات الجليلة لفرسانه فهم شجعان موثوق بقدراتهم الحربية، أشداء لا يطولهم الملل والجزع، جُبّ همهم الحرب والحرص على النيل من أعدائهم.

تظهر في هذه الأبيات بعض الملامح الأسطورية، فوصف الشاعر للفرسان لا يخلو من مظاهر الإجلال والعظمة، خصوصا حين خصّ الواحد منهم بالبياض والإشراق بما يمتلكه من صفات السيادة والبطولة محيلا بذلك إلى أنه إحدى الآلهة التي عبدها العرب والمتمثلة في الإله (ود) وهو إحدى رموز القمر، واعتبر أبا للبشرية حسب المعتقدات القديمة، لذا قرن الشاعر صورة الرجل المثالي بهذا الإله مؤكدا قداسة ممدوحه من جهة وصفات الإجلال والعظمة من جهة أخرى².

إذا كان الرجل المثالي يرمز للقمر، فإن الشعراء الأعرية قد لا يذكرونه للدلالة على البياض مباشرة، وإنما تُكرِّب إحدى صفاته الدالة عليه كالنور، والنجم، والمصباح... من ذلك وصف "الشنفري" لوجوه أصحابه المشرقة، يقول:

سراحين فتيان كلّ وجوههم مصابيح أولون من الماء مذهب³

¹ عنتره بن شداد: الديوان، ص 63.

² ينظر: جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج 6، ص 292، 293.

³ الشنفري: الديوان، ص 28.

امتدح الشاعر قوة أصحابه وجراتهم، وأما بياض وجوههم المشرق فشبهه بنور المصابيح أولون الماء المذهب، فأحاطهم بهالة من التقديس لكونهم يحملون إحدى صفات القمر في تجلي ضوئه ونورانيته، فعبر عن علو مكانتهم التي ترتفع عن مستوى البشر العاديين. ولعل تشبيه الأعرية لمدوحهم بالقمر أو أحد صفاته هو محاولة لإضاءة الجانب السوداوي في حياتهم التي مثلها لون بشرتهم، وهذه الإضاءة تبدو أيضا في تشبيه الرجل بالشمس، يقول "عنتره":

من القوم الكرام وهم شمس
ولكن لا تولى بالدجون¹

فهذا الممدوح كريم النسب، أبيض الوجه وكأنه شمس مشرقة لا تغيب نورها، ولا تأفل حتى بمجيء الليل وحلول الظلام، وهذا المدح يرمي إلى كثرة العطاء والخير الذي يمنحه للآخرين، من ذلك قول "تأبط شرا" في عطاء ممدوحه:

شامس في المرحى إذا ما
نكت المشرق فيود وطي

يابس الجنين من غير بؤس
وندي الكهن شهم مدلى

وغيث مزن عامر حيث يجدي
وإذا يسطو فيث لي²

فشبه ممدوحه بالشمس للدلالة على بياضه من جهة وعن عطائه من جهة أخرى، فمن صفاته أنه كريم، سخي يمنح الناس دون حساب، وكأنه غيث أينما حل عم الخير، وهذه الصفات تدل على سمو الممدوح، وعن وجود بعض الرموز الأسطورية، فالممدوح يقترب من صورة الإله (بعل)، وهو إله الأمطار فبنزولها ترتوي الأرض وتتعم بالخيرات والرّخاء والنعيم، وانحباسها يعني الهلاك وحلول الخراب، ومن هنا كان عطاء الرجل ونزول الأمطار يشتركان في بعث الحياة والخير والنماء³.

وفي هذا يقول "تأبط شرا" أثناء رثائه "للشنفرى":

على الشنفرى ساري الغمام فرائح
غزير الكلى وطيب الماء باكر

¹ عنتره بن شداد: الديوان، ص 235.

² تأبط شرا: الديوان، ص 249.

³ ينظر: محمد عبد المعين خان: الأساطير العربية قبل الإسلام، (د.ط.)، مطبعة لجنة للتأليف والرحمان والنشر - القاهرة، (د.ت)، ص 123.

عليك جزاء على يومك بالحب
وقد رعت منك السيوف البواتر¹

فُتاعر جعل ممدوحه بمثابة إله يُنزل المطر، فهو غزير الكلى، ساري الغمام لا ينحبس عطاؤه فتحيا الأرض، ويعمّ فيها الخصب والحياة، وبهذا رسم لمرثيه صورة الإله (بعل) وهذا ما يدلّ على قداسته، لاقترانته بالآلهة الملتصقة بالبياض والإشراق من جهة وسخائها وكرمها من جهة، كما أنّ من تجليات هذه الصورة وصف الممدوح بالربيع للدلالة على الخصب والحياة، فيقول "عنتره" مشبها نفسه بالربيع:

.. لَأ الربيع لمن جلى بساجي أسعد إذا ما الحرب أبدت ناهيا²

فعنتره يصف نفسه بالربيع الذي يهب الخصب والحياة للناس، وهذه الصفات تدلّ على قداسته؛ حيث يظهر في صورة الإله (بعل) كما ذكرنا سابقا وهو إله المطر الذي ينزوله يعمّ الخير الأرض، وبالتالي فنزول الأمطار كان سببا لمجيء الربيع، ومن جهة أخرى فالربيع يعني عودة الحياة واستمرارها لارتباطه (بأدونيس) وهو إحدى الآلهة الذين رمزوا إلى القوة المنتجة في الطبيعة، وقد عدّ روح الحقل، وبوالم موته وبعثه تبلى الفصول، أو تواري الحياة النباتية في الشتاء وظهورها في الربيع³، ومن هنا كان اختفاؤه يعني الجفاف والهلاك، أما عودته في الربيع فتبعث الحياة في الناس، ومن هنا كان "عنتره" الإله الذي يحمل البهجة والحياة وموته يعني حلول الخراب والشقاء.

إذ كان الرجل محاطا بالإجلال والتقدّيس، فإنّ المرأة هي الأخرى كانت لها من القداسة حظّ كبير لاقترانها بالشمس، فكثيرا ما كان الشعراء > يشبهون المرأة بالشمس مباشرة أو بما يرمز إلى الشمس كالغزالة والمهابة⁴، وفي هذا يقول "عنتره":

لمن الشموس عذيرة الأحجاج يطعن بين الوثي والديباج

من كل فائقة الجمال كالمية من لؤلؤ قد صورت في عاج

...

¹ تأبط شرا: الديوان، ص ص78، 79.

² القريزي: شرحديوان عنتره، ص24.

³ طلال حرب: أولية النص، ص95.

⁴ عبد الرحمان نصرت: الصورة الفنية في الشعر الجاهلي، ص133.

بُصرت ثم هويت ثم كتمت ما - لم يلقى ولم يعلم بذاك مناجي

فوصلت ثم قررت ثم عفت من - شرفيد تاهي بي إلى الإيضاح¹

فهو يصف النساء بكرم الأصل، فهن ممنعات وكريمات، يتمتّع عن الجمال والإشراق، فشبهه الواحدة منهن بالدمية المصنوعة من العاج واللؤلؤ، > فالدمى والتماثيل تصاوير قسها الجاهليون²، وهذا ليضفي على هذه المرأة صفة القداسة، وبالتالي كانت محطّ اهتمام الجميع بما في ذلك الشاعر، فهي ذات شعر أسود لونه مستمد من ظلمة الليل، وسرعان ما ارتحل موكب الفتاة إلا أنّ الشاعر تمكّن من الوصول إليها، فنظر إليها عن قرب واستمتع بجمالها وسحرها إلا أنّه لم يصارحها بما يكّنه لها من حبّ، فعاد دون أن يبوح لها أو أن يلحق بها الأذى.

تظهر في هذه الأبيات بعض الإشارات الأسطورية، فالمرأة بيضاء تشبه الدمى بما تتمتّع به من حسن وجمال، وهي بذلك تشبه "عشتار" في رحيلها أو نزولها إلى العالم الأسفل³؛ حيث تقوم النساء بخدمتها في موكب بهيج.

لقد كانت المرأة مقدسة عند الجاهليين، وهذه القداسة استمدتها من علاقتها بالشمس لأنّ > الشمس نفسها كانت مقدسة عند العرب الجاهليين⁴، يقول "عنتره" رابطاً بين قداسة المرأة والشمس:

شمسى إذا طعت سجدت لجلالة - لجمالها وجلال الظلم طوعها⁵

أصبحت مكانة المرأة متميزة رفيعة لدرجة أنّها أصبحت عنده معبودة مثلها مثل الشمس تماماً، فرؤيتها تستوجب عليه السجود لجمالها وجلالها كما يفعل عادة عند طلوع كل شمس. إذا كانت قداسة الرجل تظهر في باب المدح، فإنّ المرأة تبرز قداستها في باب الغزل من ذلك قول "عنتره":

¹ عنتره بن شداد: الديوان، ص113.

² عبد الرحمان نصرت: الصورة الفنية في الشعر الجاهلي، ص123.

³ أمل أبو عون: اللون وأبعاده في الشعر، ص141.

⁴ عبد الرحمان نصرت: الصورة الفنية في الشعر الجاهلي، ص123.

⁵ عنتره بن شداد: الديوان، ص169.

هذه نار عبة يا لميدي قد جلا تهظلة إلى الميم
 تطلق ومظها في فؤادي نلرشوق تزداد بالتضريم
 أضرمها بيضاء كالعص ن إذا ما انثنى بمر النسيم

...

سوق البدر حسنها واستعارت سحر أجفانها ظباء الصريم¹

جعل الشاعر نار "عبلة" مشتعلة ليته دي إليها الناس في الليل؛ فتتير طريقهم وتهديهم سبيلهم، وهي بذلك تشبه النار التي تشتعل في الأماكن المقدسة فلا تتطفئ أبداً؛ لأنها نار الآلهة، ثم يعود فيصف "عبلة" بأنها بيضاء شريفة وكريمة، مشبهاً بعد ذلك جمالها بالبدر والظباء إلا أن جمالها أرفع وأسمى لأن إشراق البدر مستمد من حسناتها، أما سحر جفون الظباء فاستعارته من سحر وجمال عيونها.

وفي موضع آخر يجمع فيه بين بياض البدر، وإشراق نور الشمس وعلاقتهما بالمرأة

فيقول:

أشارت إليها الشمس عند غروبها تقول: إذا اسود الحج فاطمي بعدي

وقالها البدر الم نير: ألا اسفري فك في الكمال وفي المسعد²

وضع "عنتره" المرأة والشمس في مرتبة واحدة حتى لا نكاد نعثر على فروق بينهما، فالشمس تطلب منها الحلول مكانها عند الغروب حتى لا يغيب النور عن الأرض، أما البدر فيدعوها لمجاورته والإقامة بجانبه وهذا لما تملكه من صفات تستحق تلك الدرجة.

أما الرموز الأسطورية للون الأسود فحملت معاني الموت والفناء، استمدتها الغراب من

صميم حياته رابطاً إياها بجذور أسطورية علقت بذاكرته، فأعاد بناءها وفق متطلباته

الشعورية >فسواد الليل يعيد لا شعورياً إلى ما قبل الخلق* إلى عالم العماء؛ حيث لا حياة

ولا نور<³، من ذلك قول "عنتره":

¹ عنتره بن شداد: الديوان، ص 209.

² المصدر نفسه، ص 139.

* أسطورة الخلق تقول أن السماء والأرض تزوجا فالتصقت الأرض بالسماء فعم الظلام، ثم أنجبت الأرض الأبناء هم الشمس والقمر والنجوم ثم انفصلت الأرض عن السماء، وبهذا ساد الضياء الكون.

³ خالد زغربت: "جماليات اللون في شعر الأعرية"، ص 69.

تبي هل ع لمت اليوم مقل مالك ومص رعه في فوهوان
 - فإن كن حقا فالنجوم لحقده تعيب وهوي هذه القمران
 - لقد كان يوما أسود الليل عابسا يخاف بلا طارق الحثان¹

فالشاعر يشعر بالفجيرة، فموت "زهير" جعله يتشاءم من الليل، فغيابه لم يخلق سوى الفناء والخراب فاخفتت النجوم، وغارت وأسود الكون فحلّ الظلام، بهذا تبرز بعض الملامح الأسطورية المتجسدة في أسطورة الخلق، فالظلام يرمز إلى انعدام النور والحياة. حفل شعر "عنتره" بأساطير كثيرة، فشبّه نفسه بالآلهة السلبية التي تحمل الدمار والموت للبشر، يقول واصفا نفسه:

ولو أني كسفت السبع عن رأيت وراءه سما محيلا²

يصف "عنتره" حالته كمقاتل قضى معظم حياته في الحروب، فصار درعه لا يفارقه لدرجة أن انطبع على جلده صداً الحديد لكثرة ما لبسه، فبدأ بصورة > (هادز) إله الأموات والعالم السفلي، الذي يبدو بوجهه الأسود ويلبس درعه السوداء³، وهذه الصورة تذكرنا بقصة (إليغاست) الذي يختار درعا أسود لأداء مهمته وإخفاء هويته. جسد "عنتره" صورته في هيئة شبح الموت الذي يرهبه الناس بما يملكه من قوة وجبروت، وساهم في تشكيل صورته المفرغة سواد لونه بالإضافة إلى بده عن الغسل وعدم الاعتناء بشكله، يقول:

إني لأعجب كيف يظن صورتي يوم القتال مياوز ويعيش⁴

يقول في موضع آخر متحدثاً عن ملك الموت:

سائلي يا عيلي عني خيرا وشجعلا قد شيتته الحروب
 فسعينيك أن في حد سيفي ملك الموت حاضر لا يغيب⁵

¹ عنتره بن شداد: الديوان، ص 69.

² المصدر نفسه، ص 186.

³ أمل أبو عون: اللون وأبعاده في الشعر، ص 155.

⁴ عنتره بن شداد: الديوان، ص 162.

⁵ المصدر نفسه، ص 101.

فملك الموت لا يظهر للشاعر إلا في ميدان الحروب فهو مقيم في حدّ سيفه الذي يقطع به الرؤوس، ويحمل الموت للآخرين، كما جعل "عنتره" الموت ممثلاً في لونه الأسود واللون الأسود في أصله رمز للموت، يقول:

وَأَلْمَنِيَّةٌ وَابْنُ كَلْبِ لَهْيَةٍ سَوَادٌ جَلْدِي ثَوْبَهَا وَرِدَاهَا¹

إنّ هذه الأمثلة توضح أنّ الأسود رمز لآلهة الدمار التي شبه "عنتره" نفسه بها وظهرت في صورة الآلهة اليونانية "عشتار"، فرسم "عنتره" من خلالها صورة مرعبة ليبدل على قوته ويأسه في الحرب؛ فجبد نفسه وكأنه ملك الموت الأسود الذي يبيثّ الخوف والرعب والفرع في النفوس، وهذا ما كانت عليه الآلهة اليونانية التي تظهر غالباً بوجهها الأسود، فالتصقت صورة الموت باللون الأسود والذي بدوره يحيل إلى آلهة الموت والخراب.

أمّا الغراب فقد استحضره الأعرية في أشعارهم للتدليل على الفراق والرحيل، فربطوا صورته بجذر أسطوري يرمز <لما يذهب ولا يعود>²، يقول "عنتره":

إِنْ كَتَأْ نَمَتِ الْفِرَاقُ فِيمَا نَمَتِ رَكَابِكُمْ بَلِيلٌ مِمَّا ظَمِ
مَا رَاعِي إِلا حَمُولَةً هَلِيمًا وَسَيْطِيلًا لَتَفْحَبُ الْخَمِخَمِ
فِيهِ اثْنَانِ وَيُوعُونَ حَمُولَةً سَوَادًا كَخَافِيَةِ الْغَرَابِ الْأَسْحَمِ³

جاء الغراب ليبدل على الرحيل، ولما يذهب ولا يعود، <فكونه رمزاً للتشاؤم، والقطيعة يعود لارتباطه بالموت والدفن والقبور، وذلك مستمد من قصة قابيل وهابيل، وكان رمزاً لما يذهب ولا يعود في قصة نوح عليه السلام>⁴، ولذا فـ"عنتره" ينشأ من رؤية الغراب ولا يثق به لأنّ ما ذهب لا يعود أبداً، فهو يائس لرحيل "عبلة"، وأخذهم لكلّ ما يملكون بما في ذلك نوقهم دليل رحيل دون عودة كما ذهب الغراب ولم يرجع في قصة "نوح". وفي هذا يقول أيضاً:

¹ عنتره بن شداد: الديوان، ص 237.

² خالد زغريرت: "جماليات اللون في شعر الأعرية"، ص 79.

³ عنتره بن شداد: الديوان، ص 17.

⁴ علي أبو سنيسة: الغراب في الشعر الجاهلي، ص 94.

ظعن الذين فراقهم أتوقع وجرى بينهم الغراب الأقع¹

يقف الشاعر حزينا مهموما بسبب الراحلين الذين هجروا ديارهم وهو لا يرتجي عودتهم، لأنّ الذي رحل لا يعود، وبهذا كانت رؤية الغراب تعني رحيلاً دون عودة.

كان "عنتره" فارس الحرب والقتال، مولعا برؤية المشاهد الدموية وحث القتلى التي تتهش لحمها النسور، وتشرب غريان الفلاة من دمها، لذا كثيرا ما يبدي إعجابه بالحرب وغبارها الذي اتخذ منه كحلا، فعكس في شعره صور الحرب الدموية التي تثير النشوة في قلبه، يقول:

إذا ما الأرض صارت وردة ملى الدهان
والدم ما تجرى عليها لـ هوها أحمر قاني
ورويت الخيل تهوي في نواحي الـ صحصحان
فاسقياني لا بكأس من دم كـ الأوجوان²

فهذه الأبيات تؤكد حبّ "عنتره" للمشاهد الدموية، فهي مصدر بهجته، وهذا ما نلمسه في تشبيهه الدماء بالورود الحمراء، فبدلاً من أن يجعل الأرض خضراء تعمرها النباتات ألبسها ثوبا أحمر من الدم، ولم يكتف عند هذا الحد بل هو يتلذذ ويتلهف لشرب الدماء ويحتفل باحتسائها، يقول:

إنـي شربت من دم الأهادي بخفاف الرؤوس وما رويت³

فالشاعر مولع بمنظر الدماء العواقية على الأرض، وشغوف بالقتل، فالحياة لا تطيب إلاّ بفعل هذا، وهو هنا شبيه بالآلهة اليونانية "سيخت" صاحبة المجازر الدموية التي قامت بحملة إبادة ضد البشرية بسبب إساءتها للإله "رع"، فما كان منها إلاّ أن اختارت الدم لرد الاعتبار له، وأخبرته أنّها تستمتع وتتلذذ بشرب دماء البشر، فما كان منه إلاّ أن قنم الخمرة كبديل للدم، فاستطاع إيقاف حملتها.

¹ عنتره بن شداد: الديوان، ص48.

² المصدر نفسه، صص 220، 221.

³ المصدر نفسه، ص48.

بما أن اللون الأحمر هو لون الخمر والدم، فقد نال قداسة لارتباطه بالآلهة، كما نجده في الأساطير اليونانية، حيث اعتبر الشراب المفضل لدى الآلهة، وفي هذا الشأن يقول "عنتره":

عهدي به مد لهم اوركما
خضب البتلن ورلد به بالعظم¹

فهذه الصورة تعكس منظر سيل الدماء البشرية، وهي تعود في أصلها إلى ممارسات دينية متعلقة بالآلهة، الهدف منها إرضاء الآلهة بتقديم قربابين، هذه القربابين لا تتحقق إلا بالدم فهو أعز ما يملكه الإنسان في الحياة، والقربابين التي تُمنح للآلهة لا بد أن تكون ذات قيمة. كشف الأغرابة في شعرهم عن بعض الطقوس الدينية الممارسة في العبادة، كطقس التلبيد الذي أشار إليه "الشنفري"، يقول:

ق مئلا قتيلاً محوماً بميلب
جمار من وسط الحجيج لم بصوت²

بالرغم من الحضور الضعيف للون الأزرق في شعر الأغرابة، إلا أنه وظّف وفق أبعاد أسطورية، فعوّوا به عن دلالات الرعب والخوف، ومنه وصف السلاح بأنه أزرق، فهذا الوصف مرتبط بجذور أسطورية قديمة، يقول "عنتره":

عوالي زوقا من رماح ودينة
هوير الكلاب يقين الأفاعيا³

أراد الشاعر التعبير عن الرعب والخوف الذي تبثه الرماح الزرق في نفوس العدو؛ إذ يهّر الأعداء من شدة الخوف لرؤيتها كما تهّر الكلاب خوفاً من الأفاعي، واقتران الزرقة بالرماح تعود جذورها إلى <أسطورة العين الزرقاء ذات اللعنة المدمرة للأعداء>⁴، وهذه الأسطورة تحكي أن البرابرة عندما كثرت غزوات الرومان عليهم اتخذوا من الأزرق وسيلة للدفاع عن أنفسهم ودرء خطرهم، فجعلوا أسلحتهم زرقاء اللون، وأخذوا يهددون خصومهم باقتلاع عيونهم الزرقاء، ومن هذا المنطلق كان استدعاء الأغرابة لأسطورة العين الزرقاء التي تثير الفزع والخوف، وهذا يذكرنا بما كانت تفعله بعض الشعوب في طلاء الأجساد باللون الأزرق في

¹ عنتره بن شداد: الديوان، ص 27.

² الشنفري: الديوان، ص 27.

³ عنتره بن شداد: الديوان، ص 81.

⁴ خالد زغريت: "جماليات اللون في شعر الأغرابة"، ص 86.

الحروب والهدف من ذلك إرهاب العدو، وهذه الصفات بدورها انتقلت إلى وصف الغول وتجسيد منظره المفزع، فيقول "عنتره":

بنواظر زرق ووجهٍ أسودٍ وأظافر يشبه بين حد المنجل¹

فهذا المفهوم التدميري الأزرق انتقل إلى وصف الغول، فهو يظهر بوجه أسود، وأظافر حادة طويلة، لكن ما زاد الصورة إثارة ورعباً هو العيون الزرقاء التي تبعث على الشر والهلاك وبما تثير من رهبة. ولعلّ اختيار الغراب للون الأزرق كرمز للشر يرجع إلى لون عيون العجم الزرق التي تمثّل فيها العرب الهلاك والموت.

أما "الشنفري" فصورته البطولية لا تخلو من وصف السلاح بالزرقة التي ترهب أعداءه فتطرحهم صرعى، يقول:

ومستبسل ضارفي القويص ضممه بـلُوق لا نكس ولا متعويج²

جعل الشاعر لون سهمه الحامل للموت أزرقاً، لينثر الخوف والرعب في نفوس خصومه وللدلالة على الفتك والبأس، وهذا الوصف لا يخلو من توظيف لأسطورة العين الزرقاء المدمرة للأعداء والتي تذكرنا بـ (أرتيميس)، وهي آلهة يونانية تسهر على حماية البشر وإبعاد الخطر عنهم.

كشفت هذه الدلالات الأسطورية عن الممارسات السائدة في ذلك العصر، والتي ترسّبت في أذهانهم، وآمنوا بها، فوظّفوها في أشعارهم كاشفين علاقتها بالحياة الواقعية والشعورية داخل مجتمع خلعهم وألغى وجودهم، فجاءت الأسطورة لتعكس تجارب ذاتية ووقائع نفسية أعاد الأغرابة استحضارها وبناءها بما يتواءم وحالاتهم الشعورية مثلما هو حال "عنتره"، حين شبّه نفسه بالآلهة السلبية التي تحمل الموت والشر للناس.

¹ عنتره بن شداد: الديوان، ص 202.

² الشنفري: الديوان، ص 40.

الختمة

خاتمة:

من خلال انجازنا لهذا البحث توصلنا إلى استخلاص بعض النتائج، نذكر منها ما يلي:

- للألوان تأثير في الفكر الإنساني منذ القدم، سواء أكان هذا التأثير متعلقاً بألوان الطبيعة أو مرتبطاً بحالات نفسية معينة.

- هناك اتصال وثيق بين ألوان الموروث القديم والموروث الجاهلي، فالأبيض رمز للطهارة والنقاء، أما الأسود فرمز للخراب والموت، وهذه الدلالات مشتركة بين الشعوب، ظلت مستمرة عبر تعاقب الأجيال وتواليها، إلا أن هذا لا يمنع من وجود بعض الدلالات المتباينة التي تظهر فيها خصوصية كل بيئة في التعامل مع الأوزان.

- تتجلى دلالات الألوان في الشعر الجاهلي من خلال حبّ الأبيض ونبذ الأسود والخوف من الأحمر، والتفاؤل بالأخضر، أما اللونين الأبيض والأصفر فتتغير دلالتها بحسب كثافة اللون ودرجته.

- عُدَّ الأسود رمزاً للشقاء والمعاناة في شعر الغراب، فكانت ثورته ضد مجتمعه محكومة بعاملين: التميز اللوني، والقهر الاجتماعي؛ فالأول يعود للون بشرتهم السوداء، أما الثاني فارتبط بممارسة الظلم والقهر وتدني المرتبة الاجتماعية.

تتلخص دلالات الألوان في شعر الأعرية كما يلي:

- اللون الأبيض ومثّل هوية الشاعر الغراب الضائعة فرمزوا به للقيم النبيلة، فوصفوا به المرأة والرجل والسلاح، ونُكر في البرق الذي يبعث على الأمل والتفاؤل، في مقابل الأسود فمثّل الفجيعة والرحيل والموت وشمل على القيم الوضيعة، فكان رمزاً للتشاؤم لاقتترانه بالغراب، العقاب، الليل...

- أما الأحمر فكان لون القتل والدم، والأصفر حمل الذبول والموت، ولا يبتعد الأزرق عن الأصفر كثيراً بإثارته لمشاعر الخوف والرعب بخلاف اللون الأخضر لون الخصب والحياة.

- وظّف الأعرية الألوان في أشعارهم بنسب متفاوتة يأتي في مقدمتها الأبيض والأسود، يليها الأحمر والأصفر لكون هذه الألوان ارتبطت بطبيعة حياتهم، فكانت الأقرب في تجسيد أحاسيسهم وأحلامهم ونكرياتهم وقضاياهم، أما بقية الألوان التي ابتعدت عن همومهم الذاتية فقلّ اهتمامهم بها كاللونين الأزرق والأخضر.

- جسد الأعرية بألوانهم مظاهر واقعية وأخرى جمالية، فاستعانوا بمادتها الحسية في تصوير أفكارهم والتعبير عن حالاتهم الشعورية، وأدركوا بذلك قيمها الجمالية، كما أن توظيفهم للأساطير لم يجعلهم يغيبون الواقع تماما بإعمالهم للخيال؛ بل جاءت ألوانهم مستمدة من الواقع، فارتبط الأبيض بالشمس والقمر والأسود بالليل والأحمر بالدم.
- كثيرا ما يلجأ الغراب في شعره إلى خلق نوع من التقابلات بين اللونين الأبيض والأسود؛ لأنهما شكلا ثنائية الصراع في حياة الغراب.
- جعل اللون الأبيض الأعرية ساخطين ناقمين على مجتمعهم، وهذا بسبب التميز اللوني الذي مارسه المجتمع، فكان الأبيض لون الأحرار والأسود لون العبيد.
- إن رفض المجتمع الجاهلي للأسود جعل الغراب يدافع عن لونه ويدعو إلى التأمل في الجوهر لا في الشكل محاولا بذلك إبراز الجوانب الإيجابية لهذا اللون، وهذا ما نلمسه في شعر "عنتره" بذكره للمسك، الدر، العين، الكحل...
- أصر الجاهلي على رفض الأسود وحامله والاعتزاز بالأبيض، فلجأ الغراب نتيجة لشعوره بعقدة النقص إلى التعويض عن طريق إثبات الذات والتعالي بالنفس، فكانت فروسيته سبيله لتحقيق ذلك.
- أظهر الأعرية براعة في رسم صورهم الشعورية وتلوينها، فاستعملوا الألوان منفردة أو مزجوا بينها في لوحة واحدة مستخدمين بذلك صورا رمزية تعكس همومهم الذاتية وتجاربهم الخاصة.
- كان "عنتره" أكثر الأعرية توظيفها للألوان إذا ما قورن ببقية الشعراء السود، وأهم ميزة في استعماله للون الأسود هو رفع التحدي به لدرجة أنه اعتبره مصدر قوته واعتزازه، وهذا راجع إلى أن "عنتره" تمرد على قوانين مجتمعه، لكنه لم يخرج عن قبيلته كباقي الأعرية الصعاليك، فاضطره ذلك إلى تقديم تبريرات عن سواده والدفاع عنه.
- هذا بعض مما استطعنا اكتشافه في دراستنا هذه، فإذا وفقنا فمن الله نعمه ونشكره على نعم التوفيق والعلم، وإذا أخفقنا فمن أنفسنا ومن البدايات التي دائما ما تكون صعبة.

فهرس المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم: برواية ورش عن نافع، ط1، تشرفت بطباعته دار الخير- دمشق، 1424هـ

أ-المصادر:

1-الأعشى: الديوان، (د.ط)، دار صادر-بيروت، لبنان، 1995.

2-امرؤ القيس: الديوان، ط1، دار صادر- بيروت، لبنان، 2007.

3-البغدادي، (عبد القادر عمر):خزانة الأدب ولب لباب العرب، تحقيق:عبد السلام هارون،(د.ط)، مكتبة الخانجي-القاهرة، ج3، 1988.

4-تأبط شرا: الديوان، جمع وتحقيق وشرح: علي ذو الغفار شاكر، ط1، دار الغرب الإسلامي - بيروت، لبنان، 1984.

5-التبريزي الخطيب: شرح ديوان عنتره، قدم له ووضع حواشيه:مجيد طراد، ط1، دار الكتاب العربي- بيروت، 1993.

6-زهير بن أبي سلمى: الديوان، شرحه وقدم له: علي فاعور، ط3، دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان، 2003.

7-شعر الشنفرى الأزدي: برواية أبي فيد مؤرج بن عمرو السدوسي، تحقيق: علي ناصر غالب، مركز دراسات الخليج العربي- البصرة، 1993.

8-الشنفرى ووليه السليك وعمر بن براق: الديوان، إعداد وتقديم: إطلال حرب، ط1، دار صادر - بيروت، لبنان، 1999.

9-طرفه بن العبد: الديوان، اعتنى به:عبد الرحمان المصطاوي، ط1، دار المعرفة-بيروت، لبنان، 2003.

10-عمرو بن كلثوم: الديوان، التحقيق: إميل بديع يعقوب، مطبعة دار الكتاب العربي - بيروت، لبنان، 1996.

11-عنتره بن شداد: الديوان، (د. ط)، دار صادر- بيروت، لبنان، (د.ت).

12-عنتره بن شداد: الديوان،(د. ط)، دار الكتب العلمية-بيروت، لبنان، 1995.

13-المبرد،(أبو العباس محمد بن يزيد):الكامل، تحقيق:محمد أحمد الدالي،(د.ط)، مؤسسة الرسالة للنشر-بيروت، لبنان،(د.ت).

14-مجهول المؤلف: ديوان الهذليين، تحقيق: أحمد الزين، ط2، دار الكتب المصرية - القاهرة، ج2، 1995.

15-النابعة الذبياني: الديوان، تحقيق: محمود أبو الفضل إبراهيم، ط2، دار المعارف - القاهرة،(د.ت).

ب-المراجع:

16-ابتسام مرهون الصفار: جماليات التشكيل اللوني في القرآن الكريم، ط1، عالم الكتب الحديث - إربد، الأردن، 2010.

- 17- إبراهيم شمس الدين: قصص العرب • موسوعة تراثية لقصص ونوادرو طرائف العرب في العصر الجاهلي والإسلامي، ط1، دارالكتب العلمية- بيروت لبنان،، ج4، 1999.
- 18- أحمد مختار عمر: اللغة واللون، ط1، عالم الكتب للنشر والتوزيع- القاهرة، 1997.
- 19- عبد الله بن أحمد الأزرقى : أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، (د. ط)، المطبعة الماجدية-مكة المكرمة، ج2، (د.ت).
- 20- الأصفهاني، (أبو الفرج): الأغاني، تحقيق : إحساس عباس وآخرون، ط1، دار صادر -بيروت، لبنان، ج4، ج8، ج11، 2002.
- 21- الجاحظ، (أبو عمرو عثمان): الحيوان، تحقيق: عبد السلام هارون، ط2، مكتبة مصطفى البابلي الحلبي - مصر، ج2، ج3، 1965.
- 22- جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ط2، (دن)، ج5، ج6، 1993.
- 23- ابن حزم الظاهري، (أبو محمد علي بن أحمد): الفصل في الملل والأهواء والنحل، ط1، مطبعة الموسوعات- مصر، ج5، (د.ت).
- 24- خزعل الماجدي : أديان ومعتقدات ما قبل الإسلام، (د.ط)، دار الشروق للنشر والتوزيع- عمان، الأردن، 1997.
- 25- //متون سومر • التاريخ، الميثولوجيا، اللاهوت، الطقوس، ط1، الأصلية للنشر والتوزيع - عمان، الأردن، 1998.
- 26- خليل محمد حسن: قراءات نصية في الشعر الجاهلي، ط1، دار جرير للنشر والتوزيع -عمان، الأردن، 2012.
- 27- دارالمشرق: المنجد في اللغة العربية المعاصرة، ط1، بيروت-لبنان، 2001.
- 28- الدينوري، (أبي حنيفة أحمد بن داود): كتاب النبات، حققه وشرحه وقدم له: بزهاردلقين، (د.ط)، دارفرانرشتا ينريقيسبادن، 1974.
- 29- الزبيدي: تاج العروس، تحقيق نعبد الكريم الغرباوي، ط1، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي - الكويت، ج3، ج2001، 36.
- 30- بن سائبالكلي، (هشام بن محمد): الأصنام، تحقيق: أحمد زكي باشا، ط3، مطبعة دارالكتب المصرية-القاهرة، 1995.
- 31- سعد فهد الدويخ: صورة الآخر في الشعر العربي، ط1، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع -إربد، الأردن، 2009.
- 32- سعد الكموني: الطلل في النص العربي دراسة في الظاهرة الطللية مظهر للرؤية العربية، ط1، دار المنتخب المغربي-بيروت، لبنان، 1999.
- 33- ابن سيده الأندلسي، (أبو الحسن علي بن اسماعيل): المخصص، (د.ط)، دارالكتب العلمية - بيروت، لبنان، ج8، (د.ت).
- 34- ابن سيرين، (الهمام): تفسير الأحلام الكبير، (د.ط)، دار الفكر- بيروت، لبنان، 2008.

- 35- طلال حرب: أولية النص • نظرات في النقد والقصة والأسطورة والأدب الشعبي، ط1، المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع-بيروت، لبنان، 1999.
- 36- ظاهر محمد هزاع الزواهرية: اللون ودلالته في الشعر، ط1، دار حامد للنشر والتوزيع-عمان، الأردن، 2008.
- 37- عبد الحليم حفي: شعر الصعاليك منهجية وخصائصه، (د.ط)، الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة، (د.ت).
- 38- عبد الحميد هيمة: الصورة الفنية في الخطاب الشعري الجزائري، ط1، دار هومة - الجزائر، 2003.
- 39- عبد السلام الترماني: الرق ماضيه وحاضره، (د.ط)، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب- الكويت، العدد23، 1979.
- 40- عبد الفتاح الحموز: سيميائية التواصل و التفاهم في التراث القديم، ط1، دار جرير للنشر والتوزيع -عمان، الأردن، 2011.
- 41- عبد الفتاح نافع: الشعر العباسي قضايا وظواهر، (د.ط)، دار جرير- الأردن، 2011.
- 42- عبد القادر عبد الحميد زيدان: التمرد و الغربة في الشعر الجاهلي، ط1، دار الوفاء لنديا الطباعة والنشر-الإسكندرية، 2003.
- 43- عبد القادر الغضنفر: ثراء النص قراءات في الشعر العباسي، ط1، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع - عمان، الأردن، 2010.
- 44- عبد المعين الملوح: اللاميتان، (د.ط)، مطابع وزارة الثقافة والإرشاد القومي- دمشق، 1999.
- 45- عبد الناصر هلال: رؤية العالم في شعر أمل نقل، ط1، العلم والإيمان للنشر والتوزيع، 2009.
- 46- عبده بدوي: الشعراء السود وخصائصهم في الشعر العربي، (د.ط)، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة، 2001.
- 47- عز الدين إسماعيل: التفسير النفسي للأدب، ط4، مكتبة غريب - القاهرة، (د.ت).
- 48- علي البطل: الصورة الفنية في التراث النقدي البلاغي عند العرب، ط2، دار التنوير للنشر والتوزيع-بيروت، لبنان، 1983.
- 49- عهود عبد الواحد العكيلي: الصورة الشعرية عند ذي الرمة، ط1، دار الصفاء للنشر والتوزيع - عمان، الأردن، 2010.
- 50- فائق عبد الجبار جواد: اللون لعبة سيميائية، ط1، دار مجدلاوي للنشر و التوزيع-عمان، الأردن، 2010.
- 51- فراس السواح: لغز عشتار الإلهة المؤنثة و أصل الدين و الأسطورة، ط1، دار علاء الدين - دمشق، 1985.
- 52- //: مغامرة العقل الأولى دراسة في الأسطورة - سورية وبلاد الرافدين، ط11، دار علاء الدين - دمشق، (د.ت).

- 53-فضل بن عمار العماري: الدم المقدس عند العرب، ط1، مكتبة التوبة - الرياض، 2004.
- 54-فضيلة عبد الرحمان حسين: فكرة الأسطورة كتابة التاريخ، (د.ط)، دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع-عمان، الأردن، (د.ت).
- 55-فوزي عيسى: قراءة النص الشعري، (د.ط)، دار المعرفة الجامعية-مصر، 2007.
- 56-لوك بنوا: إشارات • رموز وأساطير، تعريب: فايزكم نقش، ط1، دار عويدات للنشر والتوزيع - بيروت، لبنان، (د.ت).
- 57-مبروك المناعي: في إنشائية الشعر • مقاربات وقراءات، ط1، دار محمد علي للنشر - صفاقس، تونس، 2006.
- 58-مجهول مؤلف: ألف ليلة وليلة، ط2، دار المشرق - بيروت، ج1، ج2، 1994.
- 59-محمد صابر عبيد: مرايا التخيل الشعري، ط1، دار الكتاب العالمي للنشر والتوزيع-عمان، الأردن، (د.ت).
- 60-محمد عبد المعين خان: الأساطير العربية قبل الإسلام، (د.ط)، مطبعة لجنة للتأليف والرحمان والنشر - القاهرة، (د.ت).
- 61-محمد علي الكندي: الرمز والقناع في الشعر العربي الحديث، ط1، دار الكتب الجديدة المتحدة-بيروت، لبنان، 2003.
- 62-محمد مرتاض: مفاهيم جمالية في الشعر • محاولة نظيرية وتطبيقية، (د.ط)، ديوان المطبوعات الجامعية - الجزائر، 1998.
- 63-مصطفى سويف: الأسس النفسية للإبداع الفني، ط4، دار المعرف - القاهرة، (د.ت).
- 64-ابن منظور: لسان العرب، ضبط نصه وعلق حواشيه: خالد رشيد القاضي، ط1، دار صبح إدسوفت-بيروت، لبنان، ج1، ج4، ج7، ج12، ج36، 2006.
- 65-نادر كاظم: تمثيلات الآخر • صورة السود في المتخيل العربي الوسيط، ط1، المؤسسة العربية للنشر والتوزيع-بيروت، لبنان، 2004.
- 66-ناهد الشعراوي: عناصر الإبداع في شعر عنتر، (د.ط)، دار المعرفة الجامعية-مصر، 2005.
- 67-النمري، (أبي عبد الله بن): كتاب الملمح، تحقيق: وجيهة أحمد السطل، (د.ط) مطبعة زيد بن ثابت - دمشق، 1976.
- 68-نوال مصطفى إبراهيم: الليل في الشعر الجاهلي، ط1، دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع-عمان، الأردن، 2009.
- 69-هرمان بلاي: ألوان شيطانية ومقدسة • اللون والمعنى في العصور الوسطى وما بعدها، ترجمة: صديق محمد جوهر، ط1، هيئة أبوظبي للتراث والثقافة (كلمة)، أبوظبي، 2010.
- 70-هلال جهاد: جماليات الشعر العربي دراسة في فلسفة الجمال في الوعي الجاهلي، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية-بيروت، 2007.
- 71-يوسف خليف: الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ط3، دار المعارف - القاهرة، (د.ت).

ج-الرسائل الجامعية:

- 1-ابتسام نايف صالح أبو الرب: صورة الحرب وأبعادها الأسطورية في الشعر الجاهلي، رسالة ماجستير غير مطبوعة، إشراف: إحسان الديك، جامعة النجاح الوطنية - نابلس، 2006.
- 2-أمل عبد القادر أبو عون: اللون وأبعاده في الشعر •المعلقات أنموذجا، رسالة دكتوراه غير مطبوعة، إشراف: إحسان الديك، جامعة النجاح - نابلس، فلسطين، 2003.
- 3-صديقة معمر: شعرية الألوان في النص الشعري الجزائري المعاصر، رسالة ماجستير غير مطبوعة، إشراف: يحيى الشيخ صالح، جامعة منتوري-قسنطينة، 2007.
- 4-علي عبد العزيز أبو سنيصة: الغراب في الشعر الجاهلي، رسالة ماجستير غير مطبوعة، إشراف: إحسان الديك، جامعة النجاح الوطنية - نابلس، فلسطين، 2012.
- 5-لزهر فارس: الصورة الفنية في شعر عثمان لوصيف، مذكرة دكتوراه غير مطبوعة، إشراف: جامعة منتوري، قسنطينة، 2004، 2005.

د-المجلات والدوريات:

- 1- مجلة حوليات التراث - مستغانم، الجزائر- العدد3، 2005.
- 2-مجلة عالم الكتب، العدد 65.
- 3-مجلة التربية والعلم، العدد1، 2010، المجلد 17.
- 4- مجلة سرمن رأى، العدد 26، ج1، تموز 2011.
- 5-مجلة مجمع اللغة العربية، دمشق، مج80، ج2.

هـ -المواقع الإلكترونية:

- 1-الموقع الإلكتروني: <http://www.sid.ir>

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات:

الصفحة	الموضوعات
أ-د	مقدمة
38-06	الفصل الأول: اللون في الموروث الإنساني
06	لغة
06	اصطلاحا
22-07	اللون في الموروث القديم
38-23	اللون في الموروث الجاهلي
78-40	الفصل الثاني: الشعراء الأغرابة واللون
45-40	مدخل إلى الشاعر الغراب
67-46	دلالة الألوان عند الشعراء الأغرابة
78-68	اللون وأثره في الصورة الشعرية
106-80	الفصل الثالث: الأبعاد الجمالية في شعر الأغرابة
85-80	بعد اجتماعي
95-86	بعد نفسي
106-96	بعد أسطوري
110-108	خاتمة
118-112	قائمة المصادر والمراجع
119	الفهرس
	الملخص (عربي)
	الملخص (فرنسي)

الملخص:

يدور موضوع البحث حول اللون: "اللون ودلالته في شعر الأعرية الجاهليين"، لما للون من دور هام في التشكيل الشعري، والهدف منه هو الكشف عن دلالات الألوان في أشعارهم ونظرتهم إليها، فالمتأمل لقصائدهم يجد أن للألوان ارتباطا وثيقا بواقعهم وأحلامهم وتطلعاتهم.

اشتمل البحث على ثلاثة فصول وخاتمة.

لما الفصل الأول فتناول معنى اللون في اللغة والاصطلاح، كما تطرقنا لدلالات الألوان في الموروث القديم والموروث الجاهلي، ومن خلاله اتضح الارتباط الوثيق بين الموروثين، كما كشفت الألوان عن بعض الممارسات والعادات السائدة في المجتمعات منذ القديم واستثمرت إلى يومنا هذا مثل لبس العروس للثوب الأبيض الذي عد رمزا للخصب والحياة.

كما عالج الفصل الثاني تأثير اللون في حياة الشعراء الأعرية وانعكاساته في الشعر والحياة الواقعية، بالإضافة إلى استقراء دلالات الألوان في أشعارهم، ثم تناولنا أثر الصورة في الخطاب الشعري ودورها في إبراز قيم جمالية من خلال رسم لوحات شعرية مليئة بالألوان.

وخصص الفصل الثالث لإبراز الأبعاد الجمالية للألوان منها البعد الاجتماعي، البعد النفسي،

البعد الأسطوري.

أما الخاتمة فتضمنت النتائج التي توصل إليها البحث.

Résumé

Le thème du mémoire porte sur la couleur : « la chaleur et sa signification dans la poésie des noirs pré-islamique » en raison du rôle important que joue la couleur dans la composition poétique et il a pour objectif de dévoiler les significations et la conception des couleurs dans leurs poèmes, car celui qui observe leurs poèmes, constatera quelles ont un lien étroit avec leur quotidien, leurs rêves et leurs aspirations.

Le mémoire contient trois chapitres, une conclusion et une liste des sources et références.

Le premier chapitre, aborde la signification de la couleur du point de vue linguistique et terminologique, on a aussi abordé ses significations d'après le patrimoine ancien et pré-islamique ce qui a révélé le lien étroit qui existe entre les deux.

Il a aussi dévoilé les pratiques et les coutumes qui dominent dans les sociétés depuis longtemps et qui perdurent à nos jours, à l'instar de l'habille blanc que porte la mariée, considéré comme un symbole de la vie et de la fertilité.

Le deuxième chapitre a traité de l'influence de la couleur dans la vie des poètes noirs et ses répercussions dans la poésie et la vie de tous les jours, ainsi que l'interprétation des significations des couleurs dans leurs poèmes.

On a ensuite abordé l'effet de l'image dans le discours poétique et le rôle qu'elle joue pour mettre en exergue les valeurs esthétiques, à travers des tableaux poétique riches en couleurs.

Le troisième chapitre a été consacré afin de ressortir les dimensions esthétiques de la couleur telle la dimension sociale, psychologique et religieuse.

La conclusion rassemble les principaux résultats auxquels j'ai abouti.